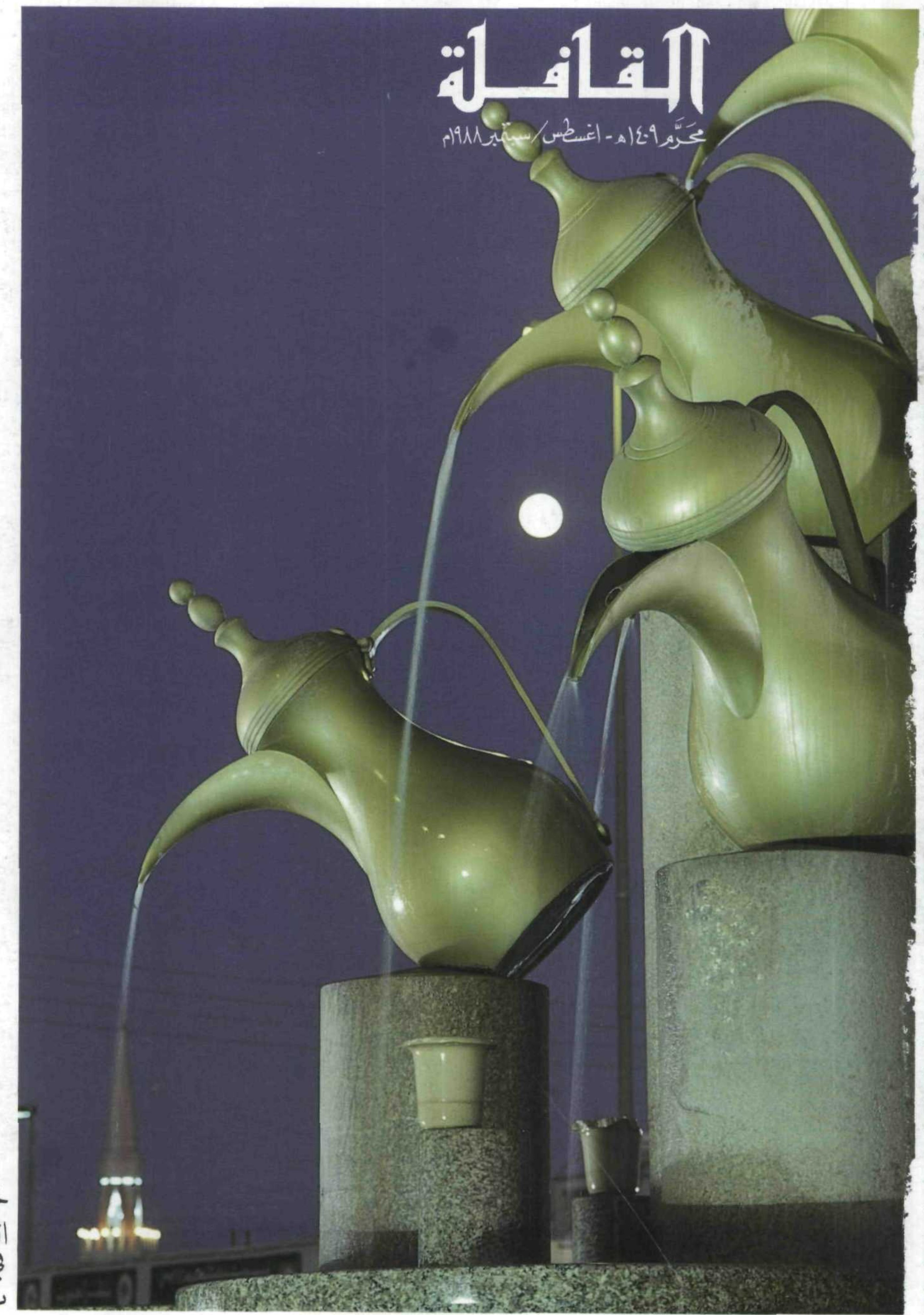


جولة القافلة في تبوك

القافلة

THE CARAVAN-AUG./SEP. 1988

محرم ١٤٠٩هـ - اغسطس/سبتمبر ١٩٨٨م
العدد الأول - المجلد السابع والثلاثون

مجلة ثقافية
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

*

توزع مجاناً

*

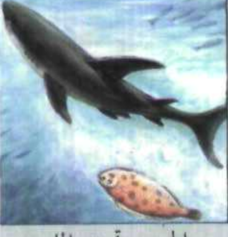
المدير العام: فيصل محمد البسام
المدير المسؤول: اسماعيل ابراهيم نواب
رئيس التحرير: عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد: عوني أبوكشك

*


منطقة تبوك


اخلاق النوخذا


مدينة الفتح الاسلامية في سيكري


الحرب تحت الماء


النقود: ظهورها وتطورها

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٨٧٥٦٣٩٢

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام - المملكة العربية السعودية
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. – DAMMAM

١٤٠٩هـ

مع تحيات القافلة

١٩٨٨/ ١٩٨٩م









محرم

	أغسطس			سبتمبر	
السبت	١ ١٣	٨ ٢٠	١٥ ٢٧	٢٢ ٣	٢٩ ١٠
الأحد	٢ ١٤	٩ ٢١	١٦ ٢٨	٢٣ ٤	٣٠ ١١
الاثنين	٣ ١٥	١٠ ٢٢	١٧ ٢٩	٢٤ ٥	
الثلاثاء	٤ ١٦	١١ ٢٣	١٨ ٣٠	٢٥ ٦	
الأربعاء	٥ ١٧	١٢ ٢٤	١٩ ٣١	٢٦ ٧	
الخميس	٦ ١٨	١٣ ٢٥	٢٠ ١	٢٧ ٨	
الجمعة	٧ ١٩	١٤ ٢٦	٢١ ٢	٢٨ ٩	

صفر

	سبتمبر				اكتوبر
السبت		٦ ١٧	١٣ ٢٤	٢٠ ١	٢٧ ٨
الأحد		٧ ١٨	١٤ ٢٥	٢١ ٢	٢٨ ٩
الاثنين	١ ١٢	٨ ١٩	١٥ ٢٦	٢٢ ٣	٢٩ ١٠
الثلاثاء	٢ ١٣	٩ ٢٠	١٦ ٢٧	٢٣ ٤	
الأربعاء	٣ ١٤	١٠ ٢١	١٧ ٢٨	٢٤ ٥	
الخميس	٤ ١٥	١١ ٢٢	١٨ ٢٩	٢٥ ٦	
الجمعة	٥ ١٦	١٢ ٢٣	١٩ ٣٠	٢٦ ٧	

ربيع الأول

	اكتوبر				نوفمبر
السبت		٥ ١٥	١٢ ٢٢	١٩ ٢٩	٢٦ ٥
الأحد		٦ ١٦	١٣ ٢٣	٢٠ ٣٠	٢٧ ٦
الاثنين		٧ ١٧	١٤ ٢٤	٢١ ٣١	٢٨ ٧
الثلاثاء	١ ١١	٨ ١٨	١٥ ٢٥	٢٢ ١	٢٩ ٨
الأربعاء	٢ ١٢	٩ ١٩	١٦ ٢٦	٢٣ ٢	٣٠ ٩
الخميس	٣ ١٣	١٠ ٢٠	١٧ ٢٧	٢٤ ٣	
الجمعة	٤ ١٤	١١ ٢١	١٨ ٢٨	٢٥ ٤	

ربيع الآخر

	نوفمبر				ديسمبر
السبت		٣ ١٢	١٠ ١٩	١٧ ٢٦	٢٤ ٣
الأحد		٤ ١٣	١١ ٢٠	١٨ ٢٧	٢٥ ٤
الاثنين		٥ ١٤	١٢ ٢١	١٩ ٢٨	٢٦ ٥
الثلاثاء		٦ ١٥	١٣ ٢٢	٢٠ ٢٩	٢٧ ٦
الأربعاء		٧ ١٦	١٤ ٢٣	٢١ ٣٠	٢٨ ٧
الخميس	١ ١٠	٨ ١٧	١٥ ٢٤	٢٢ ١	٢٩ ٨
الجمعة	٢ ١١	٩ ١٨	١٦ ٢٥	٢٣ ٢	٣٠ ٩

جمادى الأولى

	ديسمبر				يناير ١٩٨٩م
السبت	١ ١٠	٨ ١٧	١٥ ٢٤	٢٢ ٣١	٢٩ ٧
الأحد	٢ ١١	٩ ١٨	١٦ ٢٥	٢٣ ١	
الاثنين	٣ ١٢	١٠ ١٩	١٧ ٢٦	٢٤ ٢	
الثلاثاء	٤ ١٣	١١ ٢٠	١٨ ٢٧	٢٥ ٣	
الأربعاء	٥ ١٤	١٢ ٢١	١٩ ٢٨	٢٦ ٤	
الخميس	٦ ١٥	١٣ ٢٢	٢٠ ٢٩	٢٧ ٥	
الجمعة	٧ ١٦	١٤ ٢٣	٢١ ٣٠	٢٨ ٦	

جمادى الآخرة

	يناير				فبراير
السبت		٧ ١٤	١٤ ٢١	٢١ ٢٨	٢٨ ٤
الأحد	١ ٨	٨ ١٥	١٥ ٢٢	٢٢ ٢٩	٢٩ ٥
الاثنين	٢ ٩	٩ ١٦	١٦ ٢٣	٢٣ ٣٠	٣٠ ٦
الثلاثاء	٣ ١٠	١٠ ١٧	١٧ ٢٤	٢٤ ٣١	
الأربعاء	٤ ١١	١١ ١٨	١٨ ٢٥	٢٥ ١	
الخميس	٥ ١٢	١٢ ١٩	١٩ ٢٦	٢٦ ٢	
الجمعة	٦ ١٣	١٣ ٢٠	٢٠ ٢٧	٢٧ ٣	

رجب

	فبراير				مارس
السبت		٥ ١١	١٢ ١٨	١٩ ٢٥	٢٦ ٤
الأحد		٦ ١٢	١٣ ١٩	٢٠ ٢٦	٢٧ ٥
الاثنين		٧ ١٣	١٤ ٢٠	٢١ ٢٧	٢٨ ٦
الثلاثاء	١ ٧	٨ ١٤	١٥ ٢١	٢٢ ٢٨	٢٩ ٧
الأربعاء	٢ ٨	٩ ١٥	١٦ ٢٢	٢٣ ١	
الخميس	٣ ٩	١٠ ١٦	١٧ ٢٣	٢٤ ٢	
الجمعة	٤ ١٠	١١ ١٧	١٨ ٢٤	٢٥ ٣	

شعبان

	مارس				ابريل
السبت		٤ ١١	١١ ١٨	١٨ ٢٥	٢٥ ١
الأحد		٥ ١٢	١٢ ١٩	١٩ ٢٦	٢٦ ٢
الاثنين		٦ ١٣	١٣ ٢٠	٢٠ ٢٧	٢٧ ٣
الثلاثاء		٧ ١٤	١٤ ٢١	٢١ ٢٨	٢٨ ٤
الأربعاء	١ ٨	٨ ١٥	١٥ ٢٢	٢٢ ٢٩	٢٩ ٥
الخميس	٢ ٩	٩ ١٦	١٦ ٢٣	٢٣ ٣٠	٣٠ ٦
الجمعة	٣ ١٠	١٠ ١٧	١٧ ٢٤	٢٤ ٣١	

رمضان

	ابريل				مايو
السبت		٢ ٨	٩ ١٥	١٦ ٢٢	٢٣ ٢٩
الأحد		٣ ٩	١٠ ١٦	١٧ ٢٣	٢٤ ٣٠
الاثنين		٤ ١٠	١١ ١٧	١٨ ٢٤	٢٥ ١
الثلاثاء		٥ ١١	١٢ ١٨	١٩ ٢٥	٢٦ ٢
الأربعاء		٦ ١٢	١٣ ١٩	٢٠ ٢٦	٢٧ ٣
الخميس		٧ ١٣	١٤ ٢٠	٢١ ٢٧	٢٨ ٤
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

شوال

	مايو				يونية
السبت	١ ٦	٨ ١٣	١٥ ٢٠	٢٢ ٢٧	٢٩ ٣
الأحد	٢ ٧	٩ ١٤	١٦ ٢١	٢٣ ٢٨	
الاثنين	٣ ٨	١٠ ١٥	١٧ ٢٢	٢٤ ٢٩	
الثلاثاء	٤ ٩	١١ ١٦	١٨ ٢٣	٢٥ ٣٠	
الأربعاء	٥ ١٠	١٢ ١٧	١٩ ٢٤	٢٦ ٣١	
الخميس	٦ ١١	١٣ ١٨	٢٠ ٢٥	٢٧ ١	
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	

ذو القعدة

	يونية				يولية
السبت		٧ ١٠	١٤ ١٧	٢١ ٢٤	٢٨ ١
الأحد	١ ٤	٨ ١١	١٥ ١٨	٢٢ ٢٥	٢٩ ٢
الاثنين	٢ ٥	٩ ١٢	١٦ ١٩	٢٣ ٢٦	٣٠ ٣
الثلاثاء	٣ ٦	١٠ ١٣	١٧ ٢٠	٢٤ ٢٧	
الأربعاء	٤ ٧	١١ ١٤	١٨ ٢١	٢٥ ٢٨	
الخميس	٥ ٨	١٢ ١٥	١٩ ٢٢	٢٦ ٢٩	
[illegible]	[illegible]	١٣ ١٦	٢٠ ٢٣	٢٧ ٣٠	

ذو الحجة

	يولية				أغسطس
السبت		٥ ٨	١٢ ١٥	١٩ ٢٢	٢٦ ٢٩
الأحد		٦ ٩	١٣ ١٦	٢٠ ٢٣	٢٧ ٣٠
الاثنين		٧ ١٠	١٤ ١٧	٢١ ٢٤	٢٨ ٣١
الثلاثاء	١ ٤	٨ ١١	١٥ ١٨	٢٢ ٢٥	٢٩ ١
الأربعاء	٢ ٥	٩ ١٢	١٦ ١٩	٢٣ ٢٦	
الخميس	٣ ٦	١٠ ١٣	١٧ ٢٠	٢٤ ٢٧	
الجمعة	٤ ٧	١١ ١٤	١٨ ٢١	٢٥ ٢٨	

جولـة القـافلة في

منطقة تبوك

(١)

تـبوك احـدى بوابات الشمال ... تاريخ عـريق يتحدث عنهـا، وحاضـر مشـرق يحكي قصـة تطورهـا

بقلم: نجيب محمد القضيب / هيئة التحرير

مدينـة تـبوك

الحديث عن مدينة تبوك هو بمثابة عرض للانجازات الكبيرة التي حققها الانسان الذي عاش على هذه الأرض فامتدت جذوره في أعماقها خلال حقبات طويلة من التاريخ، وقد استطاع هذا الانسان، بعون الله، ثم بفضل جهوده أن يرسم لنفسه مسارا جديدا يواكب فيه الحياة ويتطلع اليها بنظرة ملؤها الايمان بالمستقبل المشرق والحب والوفاء لهذه الأرض الطيبة. فتبوك واحدة من مدن المملكة المهمة التي أصبحت الانظار تتجه اليها في الوقت الحالي نظرا لما تتمتع به من امكانات زاخرة في مجالات عديدة، ولعل أهمها الزراعة ـ التي سوف نتحدث عنها ـ هذا من جانب ومن جانب آخر ان هذه المدينة تعيش نهضة شاملة منذ السنوات القليلة الماضية كجزء من التطور الذي تشهده المملكة.

ومما عزز مكانة المدينة وقوعها موقع القلب في الجزء الشمالي الغربي وقربها من الحدود الأردنية بالاضافة الى وجود مدينة عسكرية كبيرة فيها وقربها من الشواطىء المرجانية الدافئة الممتدة على البحر الأحمر والغنية بالجزر الساحرة والواحات المتناثرة على السواحل، وأخيرا مواقعها الأثرية الكثيرة التي تشكل رافدا من روافد معالم المنطقة وتراثها وتاريخها العريق. كل هذه المعالم مجتمعة هي التي رسمت للمدينة طابعها الخاص وهويتها المميزة التي تبرز في اتساعها الأفقي اولا ووجود الحدائق والميادين والمجسمات الجمالية التي تزين شوارعها الفسيحة ثانيا، وارتباط هذه المدينة



حجر كتب عليه سورة «الاخلاص»

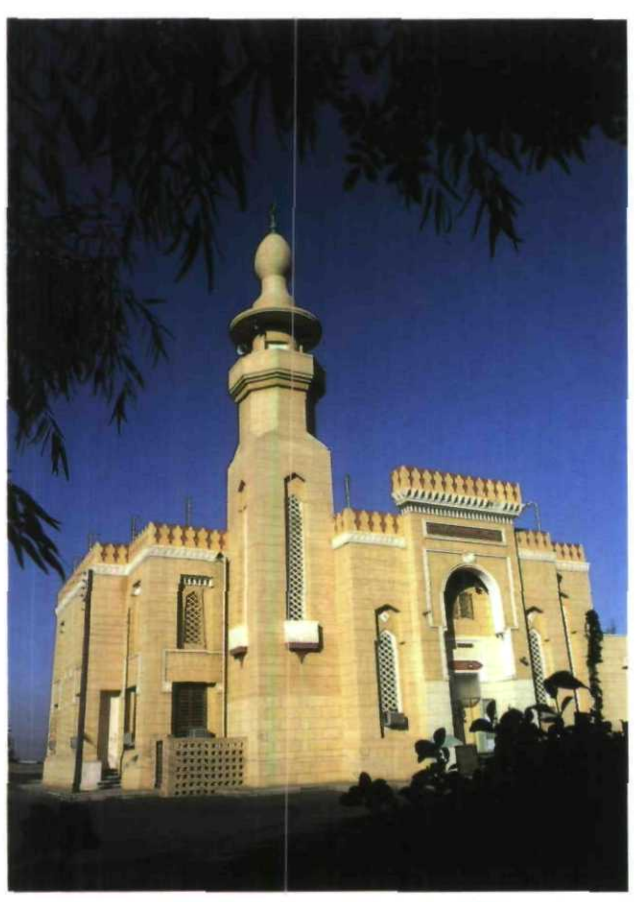
بشبكة من طرق المواصلات مع مختلف المناطق المحيطة بها ووجود مطار داخلي فيها مما منح هذه المدينة أهمية خاصة.

فتبوك كما يصفها حمد الجاسر في عام ١٣٦٧هـ عندما زارها يومئذ تتكون من مبان قليلة من الحجر وأكواخ من اللبن والطين وكان السكان يومها لا يتجاوزون الف نسمة، تحولت اليوم الى مدينة عامرة تعج بالمستشفيات والمدارس والمصانع والمزارع والحدائق والدور العامرة والطرق المتلألئة تحت أضواء المصابيح كلها تأتي تتويجا للجهود المخلصة والرعاية والتوجيه التي تحظى بها المنطقة من قبل المسؤولين.

فمدينة تبوك اليوم تسير نحو المستقبل بخطى ثابتة لتواصل ما تحقق لها من تقدم ونماء تحت رعاية أمير المنطقة الشاب صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز.

ويتوسط هذه المدينة مسجد الرسول ﷺ الذي أسسه حين غزا المنطقة، بالاضافة الى قلعة تبوك التي عرفت باسمها وكذلك مبان لمحطة سكة حديد الحجاز لا زالت قائمة وهي تشكل واحدا من المعالم الأثرية للمدينة.

واليوم تعتبر مدينة تبوك واحدة من أكبر مدن الشمال الغربي للمملكة ولا غرابة في ذلك فهي مدينة عريقة ذات تاريخ مجيد، وقد زارها الرسول ﷺ في غزوة العسرة وقال مخاطبا احد الصحابة بما معناه «ان طال بك العمر يا معاذ سترى هذه الأرض جنة ومروجا» وقد كان لها ذلك اذ شهدت هذه المدينة تطورا مذهلا في شتى الميادين وخاصة الزراعية منها.



مسجد الرسول ﷺ في مدينة تبوك، وقد أجريت عليه عمليات التجديد مؤخرا.

مركز مدينة تبوك يعج بالحركة والبنايات الفخمة الحديثة التي شيدت مؤخرا.

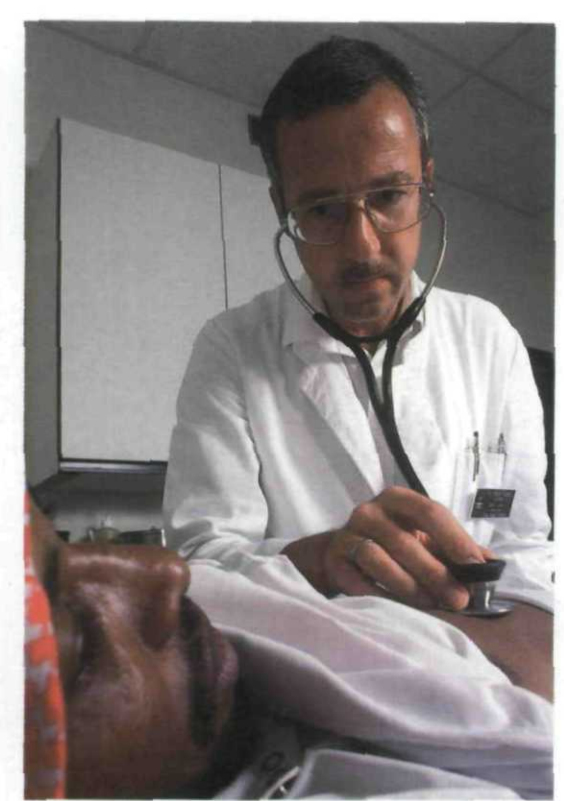
الخدمات الصحيّة

شهدت منطقة تبوك خلال السنوات القليلة الماضية المزيد من النمو في مجال الخدمات الطبية بعد إنشاء العديد من المستشفيات فيها والتوسع في البعض الآخر في مختلف مدن المنطقة اضافة الى المراكز الصحية المنتشرة حيث تغطي احتياجات السكان من هذه الخدمات الحيوية سواء كان ذلك في القرى او الأرياف أو في المدن.

ويقول الدكتور أحمد حسن أمين، مدير عام الشؤون الصحية في المنطقة عن الرعاية الصحية: «ان الرعاية الصحية في مدينة تبوك شبه مكتملة أما في المدن الأخرى مثل ضبا والوجه واملج وتيماء فهي الآن في طور عملية الحصر السكاني كما تقوم المراكز الصحية في القرى والأرياف في الوقت الحالي بفتح السجلات للمراجعين». وتقدم جميع المرافق الطبية في المنطقة برامج تثقيف صحي تتعلق بمكافحة الاسهال والجفاف وحوادث الطرق والتبرع بالدم وغيرها، بالاضافة الى نشاطات الطب الوقائي المتعلقة بمكافحة البلهارسيا والملاريا في اماكن المستنقعات خارج مدينة تبوك. وكذلك هناك برنامج يتعلق بصحة الأسنان تنفذه المديرية بالتعاون مع الجهات التعليمية في المنطقة لطلاب وطالبات المدارس، اضافة الى الملصقات والأفلام التي من شأنها أن تؤدي الى رفع الوعي الصحي. أما المستشفيات في المنطقة فيأتي في مقدمتها مستشفى الملك خالد الذي يعتبر المستشفى الرئيسي حيث تتوفر فيه معظم التجهيزات والاختصاصيين، ويقدم علاجا يضاهي ما تقدمه المستشفيات الأخرى في المملكة، وتجرى فيه مختلف أنواع العمليات الجراحية التي تتعلق بالجهاز الهضمي والعيون والأنف والأذن والحنجرة وغيرها بالاضافة الى وحدات عناية مركزة للكبار والصغار وعيادة نفسية متكاملة. وتبلغ سعة هذا المستشفى ٢٠٠ سرير، ويحتوي على أقسام عديدة منها: الجراحة بأنواعها، والأطفال والنساء، والمسالك البولية وعيادة القلب، وقسم للعلاج الطبيعي. ويوجد الى جانب هذا المستشفى مستشفى الملك فهد، وهو أول مستشفى حكومي في المنطقة اذ يرجع تأسيسه الى عام ١٣٨٦هـ، وقد أجريت به عدة توسعات حتى أصبح يضم ١٢٠ سريرا ويوجد فيه العديد من الأقسام العلاجية مثل الجراحة بأنواعها والباطنية والمسالك البولية والجلدية والتناسلية والعيون والأسنان والأشعة، كما يشتمل ايضا على قسم خاص بالكلية الصناعية. وهناك مستشفى الولادة والأطفال الذي تبلغ سعته ٦٠ سريرا، ويوجد فيه قسم خاص للأطفال سعته ٣٠ سريرا، وسوف تجرى عليه توسعة جديدة بحدود ٣٠ سريرا. كما يجري التوسع ايضا في بعض المرافق حيث سيتم اضافة وحدتين لغسيل الكلى في مستشفى الملك فهد، بالاضافة الى الوحدات الأربع الموجودة فيه، كما ستوضع ايضا وحدتان في الوجه ووحدتان في تيماء



د. احمد حسن امين، مدير عام الشؤون الصحية في منطقة تبوك.



الخدمات الصحية، في منطقة تبوك، اصبحت سهلة وميسرة للجميع.

ووحدتان في مستشفى الملك خالد كما يجرى الآن تطوير المركز الصحي في تيماء لتحويله الى مستشفى، وبجانب هذه المستشفيات الموجودة في مدينة تبوك هناك اربع مستشفيات في كل من الوجه وضبا واملج وحقل تقدم خدماتها الصحية.

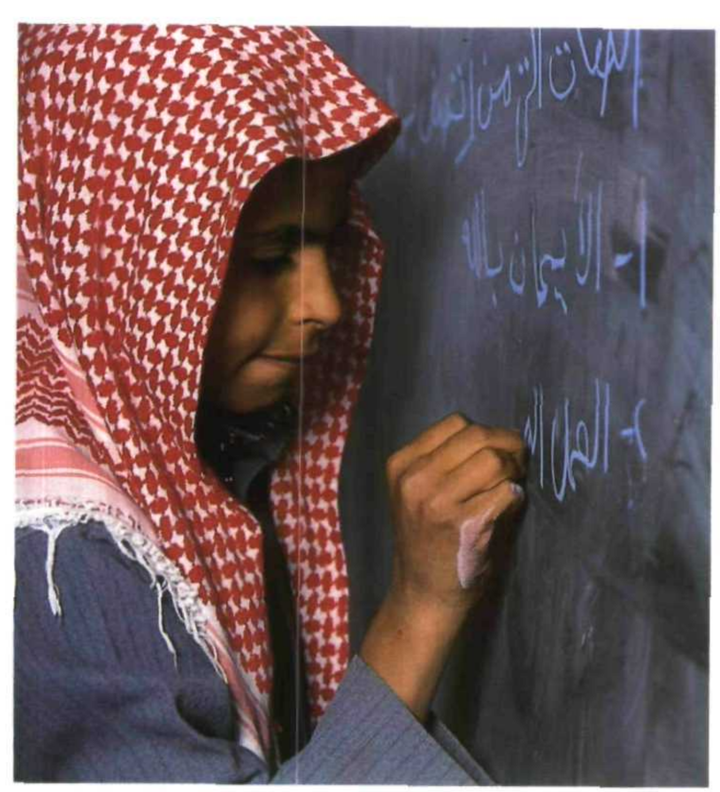
كما أن هناك العديد من المراكز الصحية في المنطقة منها سبعة في مدينة تبوك وسبعة عشر مركزا تنتشر في المدن والقرى والأرياف، تقوم بتقديم خدماتها العلاجية كما تقوم بتطبيق برامج الرعاية الصحية الأولية والتحصين ضد الأمراض الوبائية.



حجر يحمل نقشا ثموديا ينتمي الى المجموعة التيمائية.

التعـــليم

كانت تبوك ولا تزال تحتل مكانة بارزة ومرموقة. فقد احتضنت ارضها الانسان الذي شيد على ترابها حضارات راقية لعبت دورا هاما في المنطقة منذ فجر التاريخ، واليوم تستعيد تبوك مجدها الزاهر لتواكب التطور في شتى مجالات الحياة، والتعليم يمثل ركنا اساسيا من أركان البناء، وقاعدة راسخة من قواعد التقدم والرقي. فليس غريبا أن يأخذ التعليم موقعه وينشر نوره في ربوع المنطقة. وقد كان ذلك في مطلع الستينات من القرن الهجري الماضي في مدينة تبوك حين انشئت أول مدرسة حكومية، ولكن يبدو أن التعليم في



التعليم لبنة اساسية للنهضة التي تعيشها منطقة تبوك.

منطقة الساحل كانت اسبق من ذلك كما هو الحال في الوجه وضبا، وأخذ التعليم يشق طريقه بمرور الزمن حتى عام ١٣٨٥هـ حين انشيء في تبوك مكتب للاشراف على التعليم وفي العام التالي ضمت الى المكتب مدارس ضبا وحقل والوجه وتيماء وبعض المدارس المجاورة.

وشيئا فشيئا أخذ التعليم يتطور ففي عام ١٣٩٥/١٣٩٦هـ بلغ عدد المدارس الابتدائية ٤١ مدرسة وعدد طلبتها ٧٥٢٥ طالبا هذا بالاضافة الى ٧ مدارس متوسطة تضم ٧٥٢ طالبا ومدرسة ثانوية عدد طلابها ٣٣٠ طالبا.

وفي عام ١٣٩٨هـ صدر القرار الوزاري برفع مكتب الاشراف على التعليم ليصبح ادارة تعليم، ومن هنا بدأت حقبة جديدة في مرحلة التعليم حيث توسعت الصلاحيات وازدادت المسؤوليات فنما التعليم نموا مطردا حتى أصبح عدد المدارس في تبوك ٢١٩ مدرسة يدرس فيها ٣٧٤٤٥ طالبا وقد واكبت هذه النهضة التعليمية الخاصة بالبنين نهضة أخرى لتعليم البنات بدأت عام ١٣٨١هـ، أي بعد تأسيس الرئاسة العامة لتعليم البنات في المملكة بسنة واحدة فقط، بانشاء المدرسة الأولى الابتدائية بتبوك، وبعد هذا التاريخ فتحت ابواب التعليم الحكومي فعم المدن والقرى والهجر حتى بلغت مدارس البنات مع بداية العام الماضي ٦٢ مدرسة ابتدائية يدرس فيها ١٦٤٤١ طالبة بالاضافة الى ١٤ مدرسة متوسطة التحقت بها ٣٥٣٣ طالبة وتسع مدارس ثانوية ضمت ١٥٩٣ طالبة. كما أن هناك ٣٣ مدرسة لمحو الأمية يدرس فيها

حوالي ١٩٣٤ دارسة. وبالاضافة الى هذه المدارس هناك العديد من المدارس الخاصة والمدارس الأهلية.

وفي لقاء لنا مع الاستاذ عبدالرحمن عواد الحجيلي، مدير عام التعليم في تبوك، حدثنا عن اهتمام المسؤولين بالمنطقة بدفع عجلة التعليم وتشجيعه واتاحة كافة الامكانات والسبل من أجل تهيئة الجو الدراسي المناسب للطلاب ليقبلوا على التعليم بنفس مطمئنة، وقد كانت مبادرة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز، أمير المنطقة، بتخصيص جائزة علمية للمتفوقين دراسيا دليلا واضحا على حفز همم الطلاب والطالبات على حد سواء في جميع مراحل التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي، ومدارس تحفيظ القرآن، ومحو الأمية، ومركز التدريب المهني بالاضافة الى المعهد الصحي ومعهد اعداد المعلمات ومعهد المراقبين الفنيين والثانوية التجارية والمعاهد العلمية. ويضيف الأستاذ الحجيلي، أن هذه المبادرة الكريمة في بداياتها وفي النية التوسع بها مستقبلا ولا شك انها سوف تترك آثارها الطيبة في نفوس أبناء هذه المنطقة، وتحث الطلاب على التنافس الشريف من أجل تحقيق الأهداف المنشودة من هذه الجائزة ألا وهي دفع عجلة التعليم نحو مستقبل أفضل.

المشاريع في منطقة تبوك

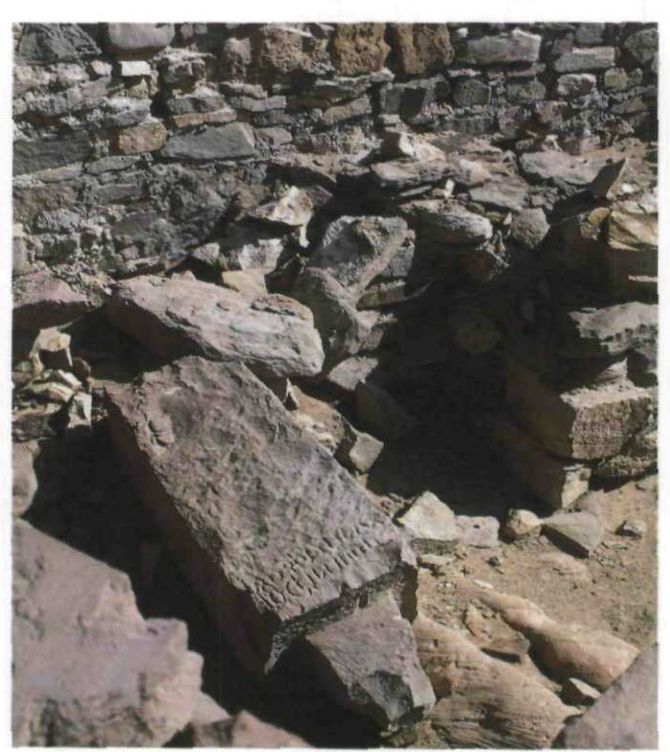
قد نالت منطقة تبوك نصيبها من النهضة الشاملة التي عمت أرجاء المملكة خلال سنوات البناء والتطور، وهذا لا يعني بطبيعة الحال توقف المسيرة وإنما هي مستمرة — إن شاء الله — لان التطور والتقدم لا يقفان عند حدود معينة فالانجازات الكبيرة التي تحققت في شتى مجالات الحياة إنما هي الخطوة الأولى لترسيخ دعائم المستقبل للّحاق بركب الحضارة علميا وفكريا واقتصاديا واجتماعيا. ففي تبوك الآن يد تجني ثمار التطور ويد تبني النهضة العملاقة. فقد رأينا كيف كانت تبوك قرية صغيرة وكيف هي الآن مدينة زاهية بفضل الله ثم بفضل الانجازات الكبيرة التي تحققت من خلال المشاريع العامة التي تنفذ فيها الآن وأهم هذه المشاريع هي:

مشروع كهرباء تبوك المركزي

ينفذ في الوقت الحالي مشروع كهرباء تبوك المركزي من قبل المؤسسة العامة للكهرباء، وهذا المشروع الحيوي الضخم يتزامن مع التحولات الكبيرة التي تعيشها المنطقة، ولا شك أنه سيوفر الطاقة لسد الاحتياجات المتزايدة في الفترة الحالية والمستقبلية، كما أنه سيمد المشاريع الأخرى مثل ميناء ضبا بالطاقة اللازمة لتشغيله، وكذلك الصناعة التي تشهد توسعا كبيرا. كما انه سيغذي المزارع والمشاريع القائمة عليها بما تحتاج اليه من الكهرباء وكذلك المزارع التي يمكن أن تنشأ مستقبلا



احد المعالم الجمالية في مدينة تبوك كتب عليه «لا اله الا الله».



جانب من آثار قصر الحمراء في مدينة تيماء ورغم الدمار الذي حل به الا أنه لا يزال من المعالم الاثرية البارزة في المدينة.

علاوة على كونه سيغطي المنطقة الشمالية الغربية من المملكة ابتداء من حدود الأردن شمالا الى شواق جنوبا.

وسوف تصبح الخدمات الكهربائية ميسرة ومتوفرة، وفي الوقت نفسه سوف يساعد رؤوس الأموال على التدفق للمنطقة نظرا لتوفر المواصلات والمياه ووجود العنصر البشري. وهذا من شأنه أن يغير من التوزيع السكاني ويساهم في دفع النشاط التجاري والزراعي والصناعي ويزيد من الرفاه الاجتماعي. ويتضمن هذا المشروع ثلاث مراحل:

الأولى: وتتضمن انشاء محطة مركزية بالقرب من مدينة ضبا تتألف من ثلاث وحدات توربينية غازية قدرة كل واحدة منها ١٨ ميغاوات أي بقدرة اجمالية تصل الى ٥٤ ميغاوات، بحيث يتم نقل هذه الطاقة عبر خطوط الضغط العالي ــ ١٣٢ كيلوفولت ــ على طول الساحل الى مدينة حقل في اقصى الشمالي الغربي، مرورا بمدينة البدع، وقد أنجز هذا الخط الذي يبلغ طوله ٢٢٦ كيلومترا، كما أن هناك خطا آخر للضغط العالي يربط مدينة تبوك ببئر ابن هرماس يمتد لمسافة ٧٢ كيلومترا بالاضافة الى توسعة محطة التحويل في بئر ابن هرماس لتصبح جهد ١٣,٨/٣٣/١٣٢ كيلوفولت. وانشاء محطتي تحويل في ضباء والبدع جهد ١٣٢/٣٣/ ١٣,٨ كيلوفولت وثالثة في حقل جهد ١٣,٨/١٣٢ كيلوفولت، ونظام اتصالات لمحطات التحويل في ضبا والبدع وحقل وبئر ابن هرماس وحالة عمار وشواق وجبّة يضاف الى ذلك انشاء شبكة ومحولات للتوزيع في البدع وحقل وشبكة توزيع في منطقة بئر ابن هرماس تشتمل على محطتي تحويل فرعيتين في بئر ابن هرماس وحالة عمار الى جانب خطوط التوزيع كما تتضمن هذه المرحلة إنشاء شبكات التوزيع في منطقة ضبا ومحطتي تحويل فرعيتين في شواق وجبّة وخطوط نقل الجهد ٣٣ كيلوفولت الى جانب خطوط التوزيع وأخيرا انشاء مجمع سكني للعاملين في ضبا ويتكون من عدد من المنازل والعمارات والمرافق العامة.

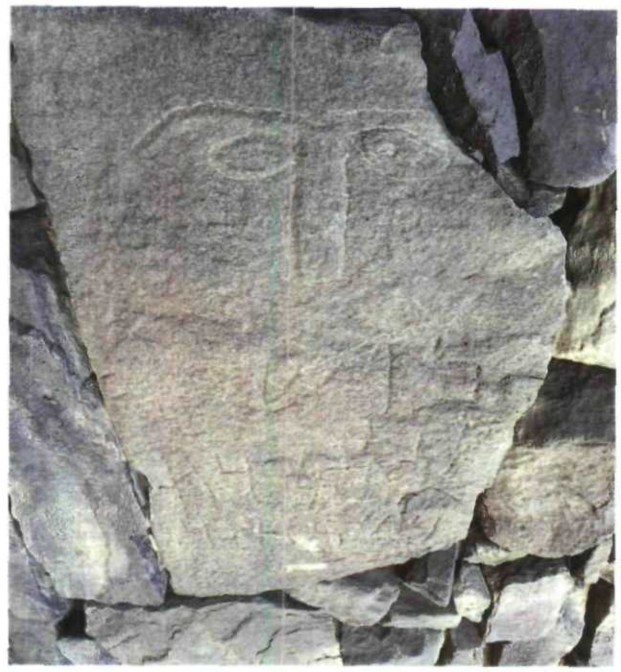
أما المرحلتان **الثانية والثالثة** فقد وضعت الدراسات المتعلقة بهما.

مشروع ميناء ضبأ:

يجري العمل به حاليا على قدم وساق. وهو يشكل احد المشاريع الهامة التي تنفذ على مستوى المنطقة من أجل تطويرها وربطها داخليا وخارجيا.

والهدف من انشاء هذا الميناء هو ايجاد منفذ يخدم المنطقة بشكل عام، وعن طريقه يمكن أن تنتعش التجارة والصناعة والزراعة وهذا بطبيعة الحال سيؤدي الى زيادة اتساع السوق التجاري بفعل توفر وسائل نقل اقتصادية.

وقد اختير موقع هذا الميناء في خليج صغير شمال المدينة يتميز بعدم وجود التيارات البحرية فيه وعمق مياهه بالاضافة الى طوله وعرضه المناسبين، ويتكون هذا المشروع من مرحلتين الأولى وتشمل اقامة ستة ارصفة منها رصيف



جزء من جدران قصر الرضم وتبدو فيه احد الاحجار مزينة بصورة وجه مع بعض النقوش.

رئيسي يبلغ طوله ٦٠٠ متر وعمقه ١٠,٥ متر ويتكون من ثلاثة مراس تستطيع استقبال ثلاث بواخر تصل حمولة الواحدة منها الى ٣٠ ألف طن في وقت واحد. وكذلك ثلاثة أرصفة صغيرة الأول للصيادين ويبلغ طوله ١٠٥ امتار والثاني لسلاح الحدود وطوله ٩٠ مترا وثالث للخدمات وطوله ٩٠ مترا.

وتتضمن المرحلة الأولى ايضا انشاء الخدمات البحرية مثل المدخل الملاحي والارشادات البحرية بالاضافة الى ساحة تخزين ومستودعات، وقد اوشكت هذه المرحلة على الانتهاء.

أما المرحلة الثانية فتتضمن المنشآت الادارية والمخازن ومحطة مياه بالاضافة الى محطة الصرف الصحي وهذا الميناء هو الميناء الرئيسي في المنطقة الشمالية الغربية وسوف يقدم خدماته للسفن والبضائع والمسافرين كما انه سوف يساهم في انتعاش المنطقة.

مشروع تحلية مياه ضبأ:

سوف ينتهي العمل فيه في مطلع العام الهجري القادم وهذا المشروع سوف يمد مدينة ضبا والقرى التابعة لها بالمياه النقية الصحية للشرب.

وينتج هذا المشروع حوالي مليون جالون يوميا من المياه بالاضافة الى طاقة كهربائية كافية لتغذية المشروع نفسه، وسوف يحل محل المحطة القديمة التي أصبح انتاجها لا يكفي لسد الاحتياجات المتنامية للمدينة. ومن المتوقع ان يغطي هذا المشروع الاحتياجات الحالية والمستقبلية للمدينة.

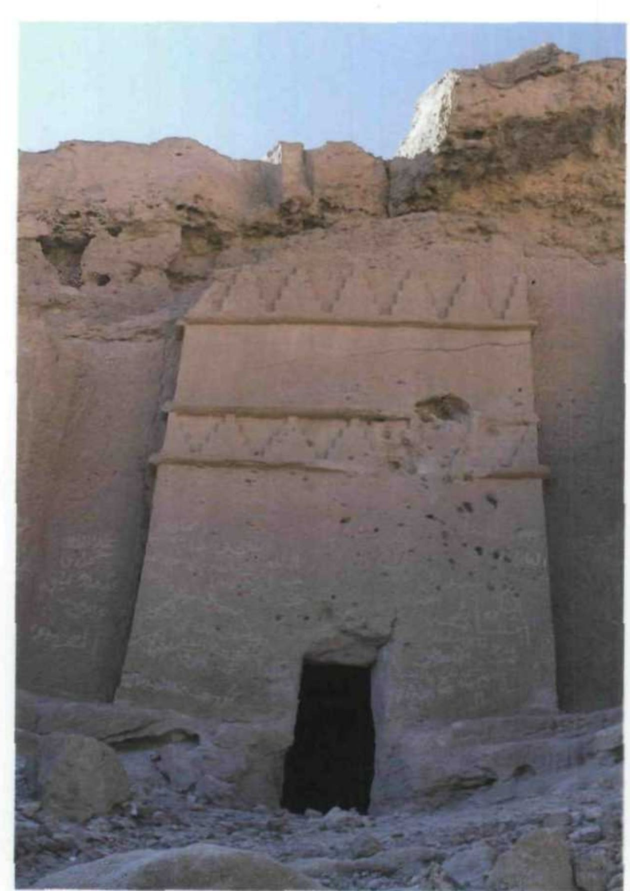
تعتبر تبوك واحدة من أقدم المناطق في الجزيرة العربية وهي غنية بالآثار التي تدل على اهميتها التاريخية، وقد رأيت خلال زيارتي القصيرة، العديد من المواقع المتناثرة في المنطقة.

مدينـة تيماء

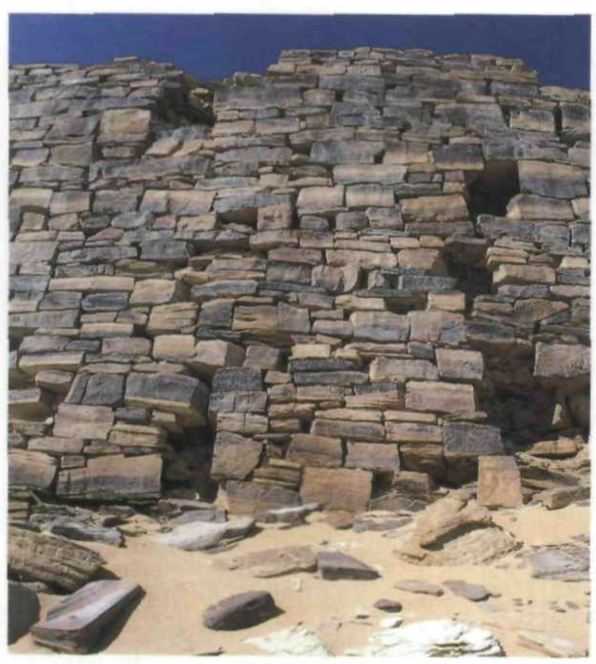
هذه المدينة واحدة من مراكز الحضارة العربية القديمة، ويبدو أن موقعها المتوسط على الطريق التجاري الذي يربط بين مصر والعراق من جهة، وبين الشام واليمن من جهة أخرى ساعدها على النمو والازدهار ومن ثم التطور والتوسع، كما أن وفرة المياه وخصوبة الأرض فيها كانا عاملين مشجعين للاستقرار والبناء.

والزائر حين يقترب من مدينة تيماء يشم أرج التاريخ وعبير الماضي يفوحان في الوديان القريبة من المدينة ويبصر سعفات النخيل وهي تطاول عنان السماء، وحين يدخل اليها تستقبله اسوارها التاريخية الممتدة ذات اليمين وذات الشمال، وكأنها يد حانية تطوق المدينة التي تقع في منخفض تحيط به سلاسل من التلال.

ومما يلفت النظر هو امتداد بساتين تيماء من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي، وبروز منازل جديدة شيدت مؤخرا نتيجة عملية التطور الحديثة. ويخترق مدينة تيماء طريق ينحدر من تبوك في الشمال ويتجه جنوبا نحو المدينة المنورة مارا بخيبر، ويبدو أن هذا الطريق هو نفسه الطريق القديم.



احد المداخل لمغاير شعيب، وهي عبارة عن بيوت منحوتة داخل الحجر، في مدينة البدع.



بقايا من سور تيماء التاريخي الذي يحتضن المدينة.

وتاريخ هذه المدينة موغل في اعماق الماضي، حافل بالكثير من الاحداث، ومن أجل ذلك حظي بالعناية والاهتمام من قبل المؤرخين على امتداد الازمان. فابن جرير يقول «من العماليق — أبناء لاوذ بن سام بن نوح — أهل تيماء، وكان ملك الحجاز منهم بتيماء اسمه الأرقم». وتذكر بعض المصادر التاريخية ان الملك الأشوري تيجلات بليزر (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م.) قد أخذ الجزية من أهالي تيماء، بعد أن انتصر على ملكة عربية اسمها «زبيبي» وملكة عربية اخرى اسمها «شمسي».

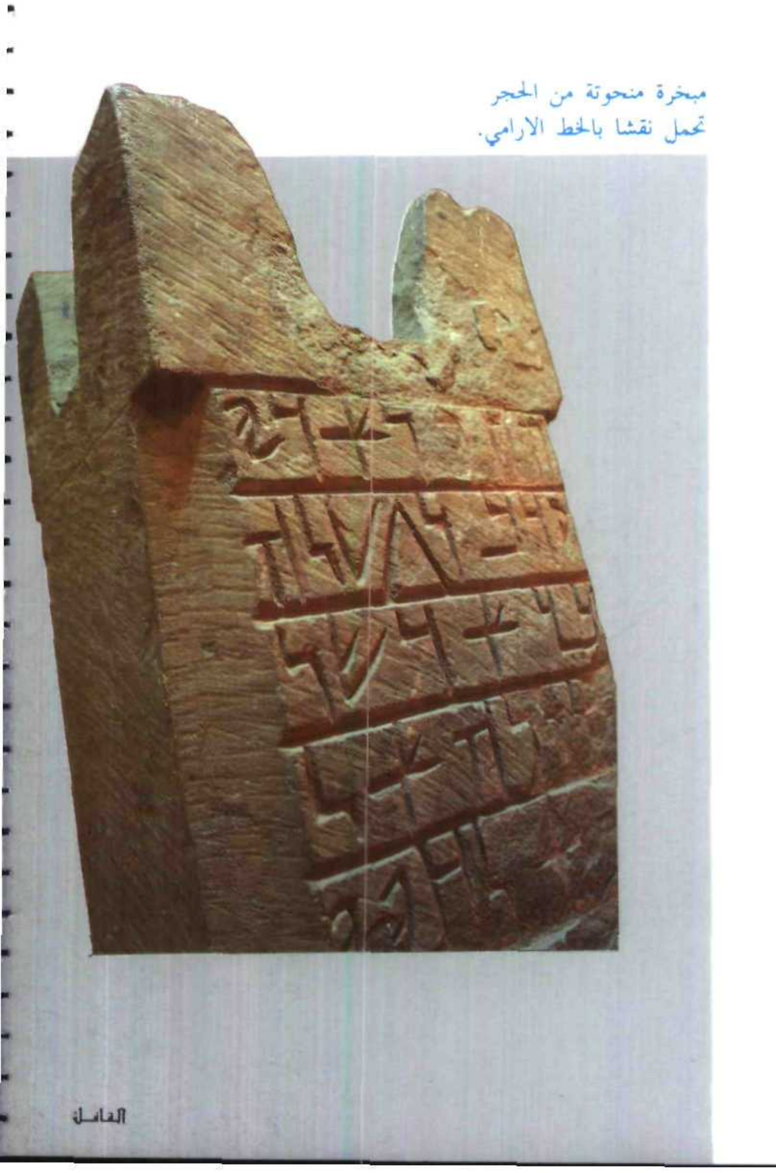
ويذكر عادل عياش* ان الملك البابلي نابونيد غزا تيماء في عام (٥٥٢ ق.م.) واستولى عليها بعد أن قتل اميرها، وقد اعتزل هذا الملك العشر سنوات الأخيرة من حكمه في هذه الواحة، وقد شيد فيها قصرا يشبه قصره في بابل التي ترك حكمها في يد ابنه، كما انه سور المدينة، وبين هذه الفترة وفترة العصور العربية الأولى يكتنف تاريخ تيماء بعض الغموض لقلة المصادر التي تلقي الضوء على المنطقة خلال الفترة النبطية والرومانية، رغم وجود بعض الاشارات التي تدل على خضوع المنطقة للحكم النبطي.

ولكن هل كانت تيماء جزء من الامبراطورية الرومانية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد؟ هذا السؤال ربما تجيب عنه الآثار التي يمكن العثور عليها في المستقبل.

وحين تأتي العصور العربية يبدو تاريخ تيماء اكثر وضوحا، فالمسعودي يذكر في «مروج الذهب» أن الزباء ملكة تدمر كانت تأتي الحصون فتنزل بها، فنزلت «بمارد» حصن دومة الجندل، و «الابلق» حصن تيماء، وقالت «تمرد مارد وعز الأبلق». والمعروف ان الزباء عاشت حتى عام ٢٧٣م.



مشروع تحلية مياه ضبا، حيث يجري العمل على قدم وساق لاكماله.



مبخرة منحوتة من الحجر تحمل نقشا بالخط الارامي.

ويبدو لنا من هذا المثل ان حصن «الأبلق» الذي ينسب الى السموأل بن عاديا، ربما نسب اليه خلال فترة متأخرة، وعلى حد تعبير الاستاذ حمد الجاسر «ان اضافة بنائه لأناس تأخروا عن هذا الزمن قد يكون من قبيل التجديد والاصلاح».

وفي الفترة التي سبقت بزوغ فجر الاسلام هناك بعض الحوادث التي أشارت اليها كتب الأدب ومنها قصة امرىء القيس مع السموأل، وهي مشهورة.

وفي العصر الاسلامي نجد ان الرسول ﷺ قد ولّى يزيد ابن أبي سفيان امارتها. ثم تبدأ أخبار هذه المدينة بالاندثار الى أن تختفي في العصور المتأخرة.

تيماء في العصر الحديث

نشأت في العصر الحديث حركة واسعة للتعرف الى الشرق الاسلامي ومعرفة تاريخه، فتوجه عدد من المستشرقين الى جزيرة العرب وزار كثيرمنهم مدينة تيماء وتحدثوا عنها. وأشهر الذين زاروها ج. والين ــ Wallin الذي قدم الى تيماء عام ١٨٤٥م ثم عاد اليها عام ١٨٥٨م واعطى عنها بعض المعلومات، ثم زارها بعد ذلك كارلو جرماني ــ Carlo Guarmani عام ١٨٦٤م، كما زارها ايضا دوتي ــ

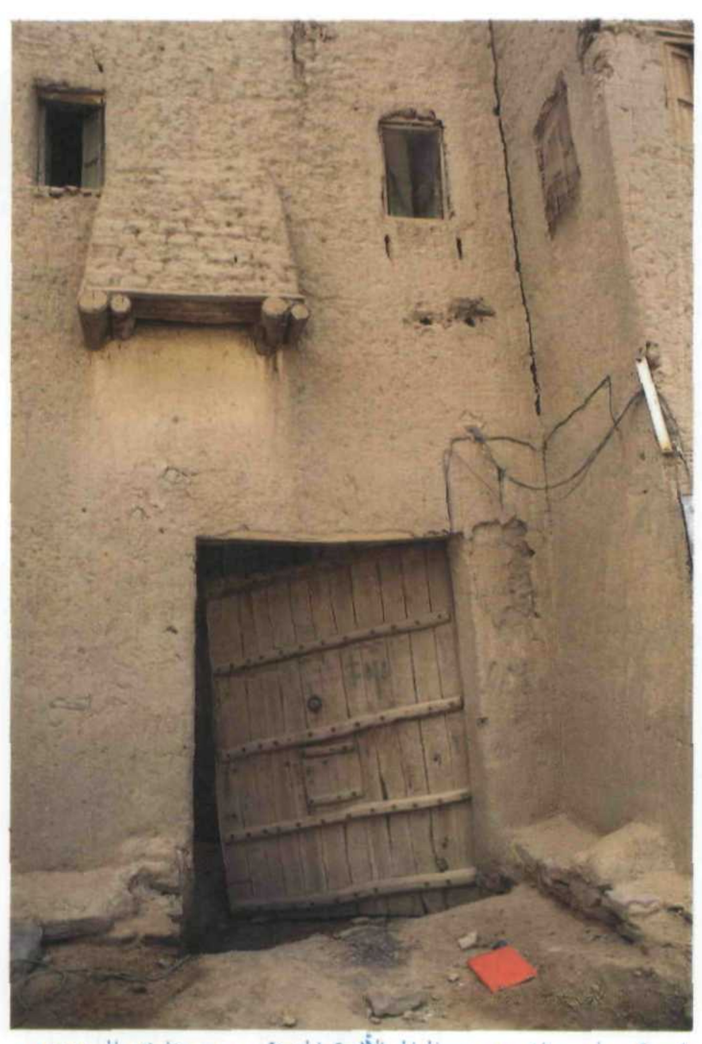
Doughty في عام ١٨٧٧م، وكذلك تشارلس هوبر — Charles Huber عام ١٨٧٩م الذي رجع اليها مرة ثانية وبصحبته اوتنج — Euting. وفي مطلع هذا القرن زار المدينة جوسن وسافيناك — Jaussen & Savignac عام ١٩٠٩م وفي نفس العام زارها دوجلاس كروثرس — Dougles Garuthers، ومن الذين زاروا المدينة ايضا المستشرق الويس موزل — Alois Musil عام ١٩١٧م.

وبعد الحرب العالمية الثانية زار مدينة تيماء «فلبي» عام ١٩٥١م، كما قام اثنان من المؤرخين السعوديين بزيارة تيماء، الأول الاستاذ عبدالقدوس الانصاري عام ١٩٦٢م، والثاني الاستاذ حمد الجاسر ١٩٧٠م، وقد تحدث عن هذه الرحلات الدكتور جواد علي في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» والاستاذ حمد الجاسر في كتابه «في شمال غرب الجزيرة» والدكتور حامد ابراهيم ابو درك في «مقدمة عن آثار تيماء» وغيرهم كثير.

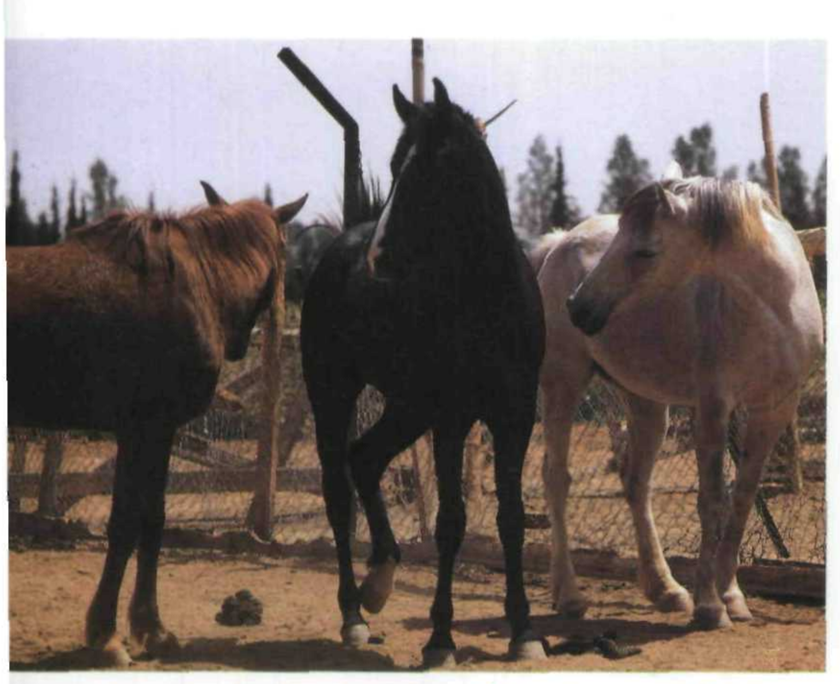
ويصف لنا الاستاذ حمد الجاسر المشقة التي كابدها «هوبر» في الحصول على «حجر تيماء» الذي يزن ١٥٠ كيلوغراما، وكيف نقله بعد ذلك الى متحف اللوفر في باريس عن طريق سكة حديد الحجاز من العلا الى دمشق ومن ثم اخذ طريقه الى فرنسا.

«ويحوي حجر تيماء نقشا من أعظم النقوش التي كشف عنها حتى الآن قيمة اثرية ويرجع تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد وهو مكتوب باللغة الآرامية».

ورغم ما تعرضت له هذه الآثار وغيرها من عمليات السطو والسرقة، إلا أن المدينة لا زالت تحتفظ بالكثير من الآثار القائمة مثل قصر الأبلق، وقصر الحمراء وقصر الرضم وبئر هداج وسور تيماء الاثري وبرج بدر بن جوهر وقصر ابن رمان، ولا اعتقد أن من يشاهد هذه الآثار يخامره شك في أن هذه المدينة قد نضبت مما فيها، فبين خرائبها الآن بعض قطع الحجارة المنقوشة والعديد من قطع الفخار المتناثرة على وجه الأرض ونتف من الخزف وما شاكل ذلك. واعتقد أن ارض تيماء لا زالت تضم الكثير والكثير من الآثار، فكما



باب قصر ابن رمان، وهو من المعالم الأثرية الحديثة، ويرجع تاريخه الى ١٣٣٨هـ.



تبوك لا تزال مستودعا خصبا للكثير من العادات العربية العريقة ومنها حب الخيل.

وجه لاحد الاطفال يتطلع الى المستقبل المشرق بابتسامة بريئة.



بئر هداج من الآبار القديمة والمشهورة في الجزيرة العربية، تتوسط بساتين النخيل في تيماء.



احد المنازل الحديثة في وسط مدينة تبوك.

يبدو ان الحفريات المنظمة لم تكن كافية للكشف عن اسرار وخبايا تاريخها العريق، وإنما تم التعرف فقط الى الآثار الظاهرة، ومما يؤيد هذا الشك قصة حصول «هوبر» على حجر تيماء كما يذكرها الاستاذ الجاسر «بأنه يرغب في الحصول على ذلك الحجر الذي فوق القصر بطريق هدم الجدار بقوة».

وبهذا القدر نكتفي بالحديث عن تيماء، وسنتعرض بشكل عام للآثار الموجودة في منطقة تبوك وهي:

* **الأزلم**: وتقع جنوب ظبا على بعد حوالي ٥٠ كيلومترا بالقرب من ساحل البحر الأحمر وفيه قلعة بنيت قبل القرن العاشر الهجري لحراسة الحجاج ولا تزال اطلالها قائمة، ويشتهر الأزلم بغزارة مائه الا انه غير عذب.

* **البدع**: وهي مدينة صغيرة تابعة لإمارة ظبا، تقع شرقي خليج العقبة وأشهر المواقع الاثرية فيها «مغاير شعيب» وهي عبارة عن بيوت محفورة في سفوح الوديان الجنوبية، وقد اصاب التلف بعضا من هذه المغاير بفعل عوامل التعرية التي اثرت فيها تأثيرا شديدا فدرست النقوش المرسومة على بعض واجهاتها.

* **الأخضر**: وهي احدى المحطات الكبيرة التي تقع جنوب شرق مدينة تبوك وعلى بعد ٧٥ كيلومترا منها، وتشتمل على مبان لسكة الحديد القديمة ومسجد وبركة ماء.

* **الخريبة**: وهي قرية صغيرة تقع على ساحل البحر الأحمر، وتذكر المراجع التاريخية انها مستوطنة سكنية وتاريخها التقريبي «نبطي — اسلامي».

* **الديسة**: وتقع جنوب مدينة تبوك ويوجد فيها واجهات نبطية منحوتة بالصخر وبقايا اساسات جدران مبان سكنية.

* **العرجاء**: وتقع على بعد ٣٠ كيلومترا جنوب شرق مدينة الوجه، ويبدو انها كانت قرية سكنية تعدينية هامة، وفيها حفر قديمة يعتقد أنها مناجم.

* **المعظم**: ويبدو أن تاريخها يرجع الى بداية القرن السابع الهجري حين أنشأ الملك عيسى بن العادل محمد الأيوبي (٥٧٦ — ٦٢٤هـ) بركة عرفت باسمه على طريق الحاج الشامي، وفيها قلعة بها بئر وبركة كبيرة، كما أقيمت فيها بعد ذلك محطة للسكة الحديد وتقع جنوب تبوك بحوالي ١٣٠ كيلومترا.

* **المويلح**: وهي ميناء على ساحل البحر الأحمر وفيها قلعة حجرية أمر بتشييدها السلطان سليم خان، ولا زالت قائمة، وتتميز بوجود بعض النقوش الاسلامية على واجهاتها، وفي اركانها لا زالت توجد بعض المدافع القديمة، ويقابلها على الشاطىء واحة نخيل عامرة.

ويوجد الى جانب هذه الآثار العديد من المواقع الأخرى التي لها أهمية تاريخية كما هو الحال في السخنة والصياني والمحيبل وأم عامل وأم حويطات وأم قريات والنابع وتبوك وجبل أم هراب وخشم الخنصر وشرما وطيب اسم وفسقية تريم وقرية وكلوة ومعبد روافه ومقنا ووادي العوينذ □

تصوير: علي عبدالله المبارك

لسانيات الكلام والمكتوب

بقلم: د. منـذر عياشي/حلب

من الشخص الى النص

* تعتبر قضية الكتابة والكلام من القضايا الاشكالية في البنية الثقافية للحضارتين الغربية والعربية على حد سواء، وانها لتعتبر ايضا من القضايا الفاصلة بين نظام الحضارتين في الوقت نفسه.

فلقد طرحت المدرسة العربية، منذ بداياتها، قضية المكتوب فوقفت من خلالها على النص حيث اعتبرته منطلقا لكل نشاط لغوي. وطرحت المدرسة الغربية، على العكس من ذلك، قضية الكلام فوقفت من خلالها على الشخص حيث اعتبرته منطلقا لكل نشاط لغوي. وقد أبرز «سوسير» هذا الموقف عبر ما قدمه من دراسات في بداية هذا القرن.

وكان من نتيجة ذلك أن تأثرت العلوم الانسانية (اللسانيات والفلسفة، وعلم النفس، والانتروبولوجيا، والنقد الأدبي، الى آخره...) بموقف كل مدرسة ونتاجها الخاص في الحضارتين، فبنت مناهجها وفقا للمنظور الذي انطلقت منه. وهذا ما يفسر لنا اهتمام العلوم العربية بالنص، واهتمام العلوم الانسانية الغربية بالشخص في كل نتاج لغوي.

ولكن لسانيات الخطاب الأدبي الغربية، قد أخذت، فيما يبدو، تتجاوز موقف لسانيات الجملة كما تصورها «سوسير» وأتْباعه. فهي تشهد اليوم تطورا مخالفا لبداياتها، يسير بها نحو المكتوب. واذا كان يحق لنا أن نتكلم عن تأثير المدرسة العربية فيها، فيجب، مع ذلك، أن يكون الحكم الذي ينطوي عليه كلامنا نسبيا. ذلك لأن التطور الذي نتحدث عنه هنا، إنما هو افراز علمي خاص جاءت به الجهود العلمية الغربية وفقا لنسقها الذاتي، وانسجاما مع حاجتها الى تغيير أسسها النظرية، أي دون أن تتخلى عن منظورها العلماني في إنشاء النظريات وابداعها، وأخيرا، اتفاقا مع نسيج رؤيتها الخاص.

وما دمنا، هنا، في صدد الحديث عن آخر تطور للّسانيات الغربية واتجاهها نحو المكتوب، فقد رأينا، لغرض منهجي، ان نستخلص، في هذه الزاوية فَرْضِيَّتين نحسب أنهما الأساس الذي بنيت عليه لسانيات المكتوب الغربية والعربية، ونترك الحديث، لما سيأتي لاحقا، عن «سوسير» ولسانيات الكلام.

لقد قيل عن اللغة أنها «مرآة الذاكرة»، لأنها تهتك حجاب المفاهيم التي تقولها في استعمالها الجاري، ولأنها تضيء مخطط الفكر الانساني ومعناه المشترك(١).

ولكن اللغات في العالم، كعابر سبيل، تصبح هنا وتمسي هناك. وهي، لا بد، آيلة الى زوالها. وزوالها هو انكسار المرآة، وانطفاء الذاكرة بتجدد يحصل وفق طبيعة الأشياء، وتغير يلغي دوامها، وتبدل يحيلها الى أوابد.

فإذا كان الأمر كذلك، أي اذا كانت اللغات تعيش حياتها بين قول عابر، وكلام غير مستقر، ومصير ينتهي بها الى زوالها، فكيف قُدِّر للانسان ان صار كائنا مستمرا، ولم يمنعه قصر أجله، وزوال لغته ان ينتهي الى غده متكلما؟ ثم كيف قُدِّر للغته المتغيرة أن تقول جملة مفاهيمه المتجددة ومعارفه المتراكمة، وتكشف له عن غطاء الفكر باشتراك، وتواضع، واصطلاح يقوم به اجتماع ابناء جنسه؟

في الواقع، هناك فَرْضِيات كثيرة تولت الاجابة عن مثل هذه التساؤلات. غير أننا، في ميدان لسانيات المكتوب، نستطيع ان نقترح اثنتين جعلتنا الاهتمام بالخصائص الذاتية لمناهج الفكر الناطقة بها أولى: الأولى علمانية، ويكون الانسان فيها منتجا لنفسه. والثانية حضارية، ويكون الانسان فيها مخلوقا يُسِّر لما خلق له. والجدير بالذكر ان الفَرْضِيتين تلتقيان، بهذا الشأن، على أمر واحد، وتناقضان معا نظرية «سوسير» في الثقافة الغربية كما سنرى:

ـــ أما الأولى، فترى انه لما كانت قدرة الانسان الإدراكية هي أهم سماته المميزة، فقد علم أنه، ما زالت اللغة وبادت، صائر الى زواله لا محالة. فسعى سعيه لحفظ جنسه بإرث

(١) انظر تشومسكي .Reflexion sur le langage P. 12



ينقله الى الحاضر، ويمتد به الى المستقبل، وأحدث الكتابة مرآة للغة وحافظة لجملة مفاهيمه ومعارفه. فان زالت لغته الأولى وبادت، بقي هو بعدها حاملا إرثه، متكلما غيرها، ناقلا الى الثانية مخزون المفاهيم والمعارف التي سجلتها الكتابة عن الأولى.

ــ أما الثانية، فترى ان الانسان مخلوق لما يُسِّر له من الادراك واللغة، والكتابة. فهو، ميسَّر للإدراك، باللغة يفصح، فيخرج بهذا من «حريم البهيمية» الى كائنه الانساني، وهو بالكتابة، مهيأ لها ومسخر، يسجل برهان انسانيته، فيرسم بهذا تاريخه الخاص، وهو باللغة مكتوبة يخترق قوانين زواله ليرسي بها قوانين استمراره. وهو بالكتابة مقروءة يتجاوز حدود كائنه الانساني، ويتخطى زمنه ليكون كائنا كلاميا، ونصا مفتوحا على قراءات لا تنتهي، فيصير بهذا في الوجود مقدار الوجود في بقائه.

المكتوب في نظام الثقافتين الغربية والعربية

لكي ندخل مباشرة في صميم الجدل القائم حول هذه القضية، نكتفي بطرح السؤال التالي: هل الكتابة اشارة لسانية أم إشارة سيميولوجية؟

يحيلنا الجواب، في الواقع، الى نظامين من نظم اللسانيات: الأول غربي، وقد أسس لنفسه نظرية نستطيع أن نسميها لسانيات اللغة والكلام. وهي المعمول بها اليوم في العالم أجمع. والثاني عربي، وهو نقيض الأول، وقد أسس لنفسه نظرية نستطيع ان نسميها نظرية اللغة والمكتوب.

نظام الثقافة الغربية

أ ــ لقد ذهب «سوسير» في كتابه «Cours de linguistique general»(٢) الى تحرير اللغة وعزلها عن الكتابة. ذلك لأن الكتابة، كما وقع في ظنه، «تغتصب» اللغة وتدمرها. انه يقول: «تحجب الكتابة رؤية اللغة: فهي ليست لباسا لها ولكنها تحريف وتزوير(٣). ولذا فهو لا يرى الاشارة اللسانية إلا ضمن اللغة والكلام. ورغم هذا الموقف المبدئي، فانه يقول: «تقارن اللغة بنسق الاشارات المعبرة عن الأفكار، وهي بهذا تقارن بالكتابة، وبحروف هجاء الصم البكم، وبالشعائر الرمزية، وبأشكال الآداب العامة، وبالاشارات العسكرية، الى آخره، غير أنها اكثر أهمية من هذه الانساق»(٤).

واذا دل هذا على شيء فإنما يدل على اعتبار الكتابة اشارة يقارن نسقها بالنسق اللغوي، ولكنها اشارة غير لسانية، مثلها في ذلك مثل باقي الاشارات التي تعبر عن الأفكار، وان دخولها ميدان السيميولوجيا، اذن، أولى من دخولها ميدان اللسانيات.

ب ــ ويخالف هلمسلف سوسير، ويرى أن:

ــ النص المكتوب، بالنسبة للساني، يحمل القيمة نفسها التي يحملها النص المتكلَّم. ويرفض ان يرى سبقا للجوهر الكلامي على الجوهر الكتابي، وبالتالي فهو لا يعتقد ان الجوهر الكتابي مشتق من الجوهر الكلامي(٥).

ج ــ ويتابع مارتينه ما ذهب اليه سوسير فيناقش آراءه ويتصدى لها. ويذكّر أن:

ــ كل البشر يتكلمون، ولكن قل من يعرف الكتابة منهم، وان الاطفال يتعلمون الكلام قبل ان يتعلموا الكتابة بزمن طويل(٦)، وانه اذا كان ثمة انطلاق، فيجب أن يكون من العبارة الشفوية، وذلك لكي نفهم الطبيعة الواقعية للغة الانسانية.

د ــ ويذهب جاك ديريدا في كتابه «La grammatologie» مذهبا آخر، يتبنى فيه الكتابة، واليها يرجع أصل اللغة.

وقد ناقش ديريدا في كتابه هذا أقوال سوسير، وفسر موقفه تفسيراً بين فيه انه مستمد من مفهوم للغيب دفع به وبخلفائه الى اتخاذ هذا الموقف من الكتابة(٧).

هـ ــ ويخرج رولان بارت بموقف جديد يخالف فيه سوسير، ويقلب نظم المفاهيم التي أسسها: فسوسير، كان قد اعتبر ان اللسانيات جزء من السيميولوجيا «علم العلامات

(٢) انظر الفصل الخامس والسادس من كتاب سوسير المذكور.
(٣) المرجع السابق. ص/٥١.
(٤) المرجع السابق. ص/٣٣.
(٥) Bulletin de la societe linguistique de Paris. ton 42, P40
(٦) المرجع السابق والصفحة.
(٧) انظر الفصل الثاني من كتاب ديريدا المذكور.



والاشارات»، فأكد بهذا على خصوصية ان الكلام اشارة لسانية مستقلة عن غيرها ضمن النظام الاشاري العام.

ورأى رولان بارت، على العكس من ذلك، ان السيميولوجيا جزء من اللسانيات، فأدخل الكتابة، التي عزلها سوسير، ضمن النظام اللساني، لتصير بهذا اشارة لسانية تعبر عن الأفكار خلافا لما قاله سوسير حيث اعتبرها اشارة غير لسانية. بل لقد مضى بارت الى أكثر من هذا، فاعتبر كل الاشارات اشارات لسانية تملك القدرة على التعبير. حيث يقول: «يجب ان نقبل في النتيجة، ومن الآن فصاعدا، امكانية قلب قول سوسير في يوم من الأيام: «ليست اللسانيات جزءا، وان كان مفضلا، من علم الاشارات العام، ان علم الاشارات هو جزء من اللسانيات»[٨].

نظام الثقافة العربية

ــ اذا كانت اللسانيات، بمعناها العلمي قد بدأت، مع سوسير منذ بداية هذا القرن، انطلاقا من اللغة والكلام، وعزلت الكتابة عن ميدانها، فان التفكير اللساني ومنهج العمل فيه، قد بدأ عند العرب انطلاقا من المكتوب، أي من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وسار باتجاه اللغة والكلام.

واذا كان ديريدا قد رأى في رفض سوسير ادخال الكتابة ضمن النظرية العامة للسانيات موقفا غيبيا فلأن سوسير كان قد وضعها خارج اللغة والكلام. ولكن الكتابة عند العرب، ومنذ بدء الاسلام، تقوم على موقف غيبي من حيث الأساس. ومع ذلك، فهي لا تمثل، في منظورهم، شيئا يقع خارج اللغة والكلام. وذلك لأنها بهما تسير نحو الواقع، وعليهما تؤسس حضارة الكلمة المقروءة.

وقد كان لهذا التباين أثره في تكوين القضايا وطرح الاشكاليات، ولذا نرى ان اللسانيات، في نظام الثقافة الغربية، قد اكتفت بطرح اشكالية الكتابة ازاء قضية اللغة والكلام. بينما نرى أن التفكير اللساني، في نظام الثقافة العربية، قد تعددت اشكالياته وتنوعت. بل، لقد كونت كل اشكالية قضية تطرح اشكاليات اخرى، فقام عند القوم نظام التفريع، والتوليد، والمضاعفة، والازدواج، والرفع، والضم، والنصب، والتبعية بالاضافة، والجار والمجرور والاشتقاق كبيره وصغيره، الى آخر ما هنالك من مصطلحات معروفة، اضطروا معها الى استخدام المنهج الرياضي في حل مشكل اللغة ورموزه، وذلك الى جانب الدرس البلاغي والبياني. ومن الاشكاليات التي طرحت اذ ذاك: اشكالية الخلق، أي المحدث والقديم في مكتوب القرآن وكلامه، واشكالية الانسان متكلما، واشكالية الثابت والمتحول، واشكالية العقل واللغة، واشكالية اللغة والكتابة، واشكالية الكتابة والغيب، واشكاليات اخرى تحدث بها الأصوليون والفقهاء، والمتكلمون والفلاسفة، والنقاد والنحاة، مما جعل التراث العربي تراثا فريدا بين تراث الأمم اللغوي.

ــ ولكن ما كان لهذه القضايا ان تثار، ولهذه الاشكاليات ان تطرح لو لم يكن النص القرآني والحديث النبوي هما الباعثان على ذلك. ولذا، فقد ذهب الدارسون الى دراسة النص، وعملوا على استخراج قوانينه: صوتا، ونحوا، ودلالة. وتشعبت الدراسات شعبتين: الأولى، بحثت في مكونات النص وانساقه، وكانت غايتها الوصول الى تفسير له. ويمكننا ان نضع على رأس هذه الطائفة الامام الشافعي. اذ هو يعتبر بحق اول من وضع علم الأصول وأسس له، وهو أول من اعطى كلمة النص قوة المصطلح والمفهوم بما وضع له من شروط في تفسيره واستنباط احكامه. ولم يقف أثره عند حدود النص القرآني، فقد انتقل الى دراسة الأدب ايضا، فنشأت الشعبة الثانية من الدراسات، وكان على رأسها الجاحظ، وابن وهب، والجرجاني، وغيرهم كثير. وقد بحثت هذه الشعبة في القوانين التي يصير النص بها الى وجوده.

واذا كان الأمر كذلك، فان هذا يجعلنا نؤكد ان النص هو الأساس الذي انطلق منه العرب لدراسة اللغة. وقد نشأت عن هذا المنطلق فروع علمية عدة اختص كل واحد منها بجانب من الدرس اللغوي. فكان هناك الجانب الصوتي، والصرفي، وموسيقى الشعر وأوزانه، كما كان هناك الجانب اللفظي والمعجمي، والجانب الاشتقاقي، والجانب النحوي والتركيبي، والجانب الدلالي بكل مستوياته: السياقي، والنصي، والتطوري، وغير ذلك من الجوانب.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ان القدماء قد جعلوا من النص اساسا لكل بحث لغوي، ولعل هذا ما أدى

(٨) Communication. 4. P 2.



ــ ونحن لا نستبعد ذلك ــ الى ميلاد لسانيات النص في عصرنا هذا، وذلك بعد أن خطت لسانيات الجملة بونا شاسعا.

ــ واذا كان هذا هكذا، فإن ما ذهب اليه عابد الجابري يضعه بعيدا عن الاساس الحقيقي الذي قام عليه البحث اللغوي عند القدماء. ذلك لأنه بنى تصوره على فرع من فروع لسانيات الجملة. وقد كان أولى به ان يعمد الى لسانيات النص لتكون قاعدة له في فهم النشاط اللغوي العربي ومنطلقاته واشكالياته، لاسيما وان لسانيات الجملة كما بدت في اطروحته تقوم على المفهوم «السوسيري» في اللغة والكلام، انه يقول: «كانت الاشكالية الرئيسية والاساسية في النظام المعرفي البياني تدور حول محور واحد هو العلاقة بين اللفظ والمعنى، كيف يمكن اقامتها وضبطها، وما هي أنواعها»(٩).

وفي معرض الرد على هذا القول نود أن نشير الى أمور ثلاثة:

أولا: ان معنى الاشكالية هو «علم طرح المسائل»، وقضية اللفظ والمعنى ليست علما وهي بالتالي لا تقوى على طرح المسائل، ولأن الاشكاليات «تدل على مجموعة من المسائل التي يطرحها علم من العلوم، في سياق ايديولوجي معين. أو هي تعبر عن كشف علمي كبير او عن قطيعة، [...]، وفي الواقع، فإنه يمكن تعريف الاشكالية دائما بوساطة الأفق الايديولوجي الذي ولدت فيه. ويمكن لها أن تكون علمية او فلسفية، وهي مفتوحة دائما، على اعتبار انها تتبدل مع معطيات المعرفة»(١٠).

هذه هي الاشكالية «La problematique»، وهذا هو تعريفها ومعناها. ونحن نعتقد انها اكثر انطباقا على الأمور التي سبق لنا أن أشرنا اليها باسم الاشكاليات، ولا ندري لماذا غاب هذا عن ذهن المفكر الكبير عابد الجابري.

ثانيا: اللفظ والمعنى وحدتان لسانيتان عني العرب بهما ضمن مقولة النص. ذلك لأن نظرهم قد اتجه من خلال هذا الأمر الى لسانيات المكتوب.

وإذا أخذنا كتابا، وليكن «مفتاح العلوم» للسكاكي، فسنرى انه قد رتب ابوابه بما يتناسب ودراسة النص، إن تفسيرا وإن نتاجا. وقد عالج فيه علاقة اللفظ بالمعنى ضمن علاقة أكبر هي علاقة النص بأجزائه أو بمكوناته. وغير السكاكي نهج هذا النهج ايضا. ويدل هذا انهم كانوا اصحاب نظرة كلية وشمولية يستحيل معها الانطلاق اكتفاء بالفروع دون الأصول، وبالجزئيات دون الكليات. ولذا نراهم قد اسسوا جملة من العلوم «كعلم الاستدلال» او «علم خواص تركيب الكلام»، وغير ذلك من العلوم، فكان منها ما يختص بلسانيات النص، كما كان منها ما يختص بلسانيات الجملة، غير أنها جميعا تدخل تحت ما سميناه بلسانيات المكتوب.

ونستدل على هذه الشمولية بالتعريفات التي استخدموها. فتعريف «الحد» جاء عند السكاكي بقوله: «الحد عندنا [...]، عبارة عن تعريف الشيء بأجزائه، أو بلوازمه، أو بما يتركب منها، تعريفا جامعا مانعا»(١١). وهذا أمر معروف عندهم وغني عن البيان.

ثالثا: أما عن علاقة اللفظ بالمعنى كوحدتين مجردتين، فقد انتهوا في ذلك الى ما انتهت اليه اللسانيات الحديثة، أي الى اعتبارها علاقة قسرية غير عقلية، يقول الغزالي: «لا مجال للعقل في اللغات»(١٢). ويشرح الرازي الأمر فيقول: «وذلك لأن العقل لا طريق له الى معرفة اللغات البتة، بل ذلك لا يحصل الا بالتعليم، فان حصل التعليم حصل العلم به، والا فلا»(١٣). ولكنهم بحثوا في اثر المعنى ضمن السياق، وبالتالي ضمن النص، وهذا أمر مختلف لا علاقة له بما عناه الجابري. ولذلك ارتقوا باللغة ونظامها والنص ونظامه الى نظام معرفي أعلى صار فيه طرح الاشكاليات ممكنا. ومن هنا كان تأسيسهم للسانيات المكتوب، يدفعهم الى ذلك هم معرفي أصيل.

وأخيرا يمكننا ان نوجز فنقول: ان هذه القضايا وما تطرحه من اشكاليات في نظام الحضارتين، لتعتبر ليس فقط من القضايا الفاصلة بينهما، ولكن ايضا من القضايا التي تدل على عمق المساهمة العربية، لسانيا، وفلسفيا، وحضاريا، في النشاط اللغوي العلمي □

(٩) بنية العقل العربي. ص/٤٣.

(١٠) Dictionnaire: La philosophie. Tom. 3. P549—550.

(١١) «مفتاح العلوم». ص/٤٣٦.

(١٢) «المستصفي من علم الاصول» ج/١ ص/١٦٥.

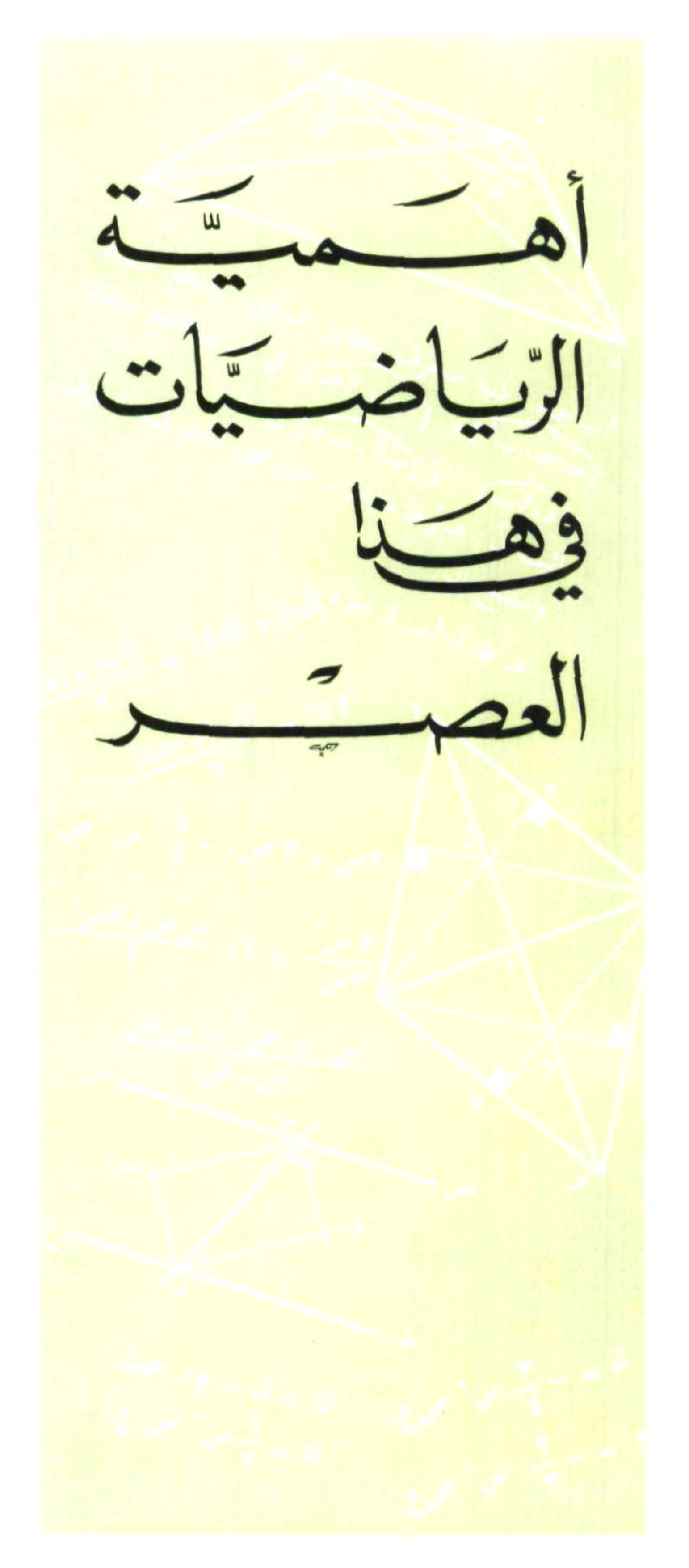
(١٣) «مفاتيح الغيب»، ج/٢ ــ ص/١٧٦.



للشاعر: د. أبو فراس النطافي / أبها

كم ركبنا أيُّها البحرُ معا
زورقا قد سابقَ الريحَ بنا
ومضينا فوقَ موجٍ هادرٍ
عانقَ الأشواقَ في اعيننا
وجرى في موكبٍ منْ فضةٍ
فوقهُ منْ طلعةِ الشمسِ سنا
تمرحُ الأسماكُ نشوى كلَّما
يهبطُ الموجُ ويعلو حولنا
تحضنُ الماءَ وتنسابُ بهِ
مثلما ينسابُ لحنٌ في غنا
والفضاءُ الرحبُ بوحٌ حالمٌ
فتنَ البحرَ بنجوى حبِّنا
وشعورٌ دافيءٌ يغمرنا
ينثرُ الوردَ بهِ والسوسنا
ضمَّنا البحرُ حبيبينِ، بنا
ابحرٌ تجري غراماً بيننا
كلَّما تظهرُ آفاقٌ به
يشرقُ الحبُّ بها في دمنا
فمياهُ البحرِ «كانتْ ملعباً
لشبابينا، وكانتْ» مسكنا
لم تزلْ احلامُنا عالقةً
بحصى الشطِّ، ورملِ المنحنى
ترقبُ الزورق يأتي مسرعاً
من خلالِ الموجِ في عُرس المنى

أهمية الرياضيات في هذا العصر



بقلم: د. محمد علوي البار / جامعة الملك فهد بالظهران

ان الرياضيات قديمة جدا ونشأت مع الانسان القديم وحاجاته الأولى وتعتبر من أقدم العلوم التي اهتم بها الانسان. وان الارقام التي تمثل ابجدية الرياضيات لا تقل في اهميتها عن الابجدية الهجائية في تاريخ المدنية الانسانية. ولهذا العلم أثر كبير في التقدم العلمي والتكنولوجي وذو مساس في اعقد العلوم العصرية، ولذلك فقد وصف عالم الفيزياء جيبس الرياضيات بأنها «لغة العلم».

ان استخدام الرياضيات كأداة لم يعد مقصورا على المختصين في العلوم الطبيعية والهندسية بل تعدى ذلك الى المختصين في العلوم الاجتماعية والتربوية وربما يأتي قريبا اليوم الذي لا يستغني فيه أي فرع من فروع المعرفة عما في الرياضيات من أرقام ورموز ومعادلات وأفكار ومناقشات منطقية. ان معرفة أفكار الرياضيات ومهاراتها أصبحت أمرا من أمور الثقافة العامة الذي يصعب الاستغناء عنه ويخطىء من يحاول تحاشي الرياضيات اذ بجهد بسيط يمكن التعامل معها بصورة طيبة.

لقد كانت الرياضيات التي تدرس في المدارس والجامعات هي الجبر والهندسة والتفاضل والتكامل وهي مواد معروفة وان التحديات التقنية التي نواجهها تحتاج الى كل فروع الرياضيات التطبيقية والبحتة تقريبا. بل ان العلوم الأخرى تدفعنا لاكتشاف حقول جديدة في الرياضيات وتوسيع نظريات وتطبيقات الفروع المعروفة.

لقد تغيرت الرياضيات في العقود الأخيرة من هذا القرن او القرن التاسع عشر واكبر تغير واضح هذه الأيام هو النمو الكبير في الرياضيات، ويتضح هذا النمو من تضاعف عدد الأبحاث والاكتشافات التي تظهر كل عقد تقريبا، وان من أكثر الأمور اثارة، وستكون ذات أهمية مستقبلا ما يلي:

أ ــ الصياغة الرياضية لكثير من الحقول التي تظهر حديثا في العلوم الأخرى.

ب ــ التأثير المتبادل بين الرياضيات والعلوم الأخرى، فنجد ان بعض التقدم في العلوم الأخرى يدفعنا لاكتشاف حقول جديدة في الرياضيات ويكون التأثير بين هذه العلوم الأخرى والرياضيات متبادلا. وكمثال على

ذلك نجد التأثير واضحا بين الفيزياء النظرية والتوبولوجيا والهندسة التفاضلية، وبين علم الحاسب الآلي والرياضيات المنفصلة-Discrete Mathematics.

جـ ـ ان المشتغلين بنظريات الرياضيات «الرياضيات البحتة» يتوصلون عن طريق ادراكهم للصور الرياضية الى نتائج تظهر أهميتها القصوى في العلوم الأخرى فيما بعد. فمثلا اكتشف اليونان القطع الناقص ثم استخدمه كبلر بعد ألف سنة في التنبؤ بحركة الكواكب. وكمثال آخر تطورت نظرية الاعداد قبل أن تظهر تطبيقات لها في علم الحاسب الآلي بعدة قرون.

لقد كانت النظريات في السابق تحتاج الى عدة عقود أو قرون ليبدأ تطبيقها أما الآن فإن كثيرا من النظريات الحديثة تطبق فور اكتشافها وينطبق هذا الأمر على المثالين في الفقرة (ب).

كان المهندسون مثلا يستخدمون الرياضيات التي نشأت في القرن التاسع عشر أما الآن فإنهم يحتاجون الى رياضيات القرن العشرين بل ان بعض فروع العلم كالحاسب الآلي والفيزياء النظرية تنتظر رياضيات القرن الحادي والعشرين لتطبيقها.

د ـ لقد وجد في الماضي فصل بين الرياضيات البحتة «وهي تُعنى بأفكار ونظريات الرياضيات) وبين الرياضيات التطبيقية «وهي تعنى بتطبيق الرياضيات في الرياضيات والعلوم الأخرى». وكان ينظر الى الرياضيات التطبيقية كرياضيات مفيدة لأن العلوم الأخرى تحتاج اليها والى الرياضيات البحتة كرياضيات من أجل الرياضيات، أي لما فيها من متعة وجمال، كالشعر يضفي على الفكر الانساني قوة وحيوية ونشاطا. أما في هذه الأيام فنجد أن جميع الرياضيات لها تطبيقات تقريبا في العلوم الأخرى وحتى الفروع الموغلة في النظريات كنظرية الاعداد والتوبولوجيا لها تطبيقات عظيمة الأهمية في أعقد العلوم العصرية.

لقد ظن البعض ان الرياضيات البحتة من العلوم التي لا تنفع ولكن الأيام تبين ان لها تطبيقات هامة يصعب التنبؤ بها سلفا.

إن استيعاب الرياضيات ضروري لمواكبة فروع المعرفة المختلفة وان تطبيقات الرياضيات تظهر يوميا في العديد من مجالات العلوم وينبع ذلك من حيوية الرياضيات وشمولها ونذكر هنا بعض الأمثلة الحديثة على تطبيقات الرياضيات:

١ ـ تطبيق الرياضيات في تحليل النظم وفي التمثيل الرمزي والمحاكاة.

٢ ـ تطبيق نظرية الاعداد في عمل أو حل رموز الشفرات.

٣ ـ تطبيق الجبر والتوبولوجيا في تصنيف بعض حلول معادلات يانغ ـ ميلر.

٤ ـ النماذج المعقدة تحتاج الى الطرق التحليلية والحسابية لتصميمها.

٥ ـ استخدام نظرية الهوموتوبي في دراسة تركيب الدماغ البشري وفي تصنيف عيوب البلورات.

٦ ـ لقد كان المعتقد ان الجبر علم يتعامل مع خواص الاعداد ولكن ظهر اخيرا ان كثيرا من الأشياء (مثل الحركات، العمليات، المتجهات، المصفوفات والتوابع) لها خواص جبرية أيضا. ومن هنا عني الجبر بدراسة الابنية الرياضية وتوسعت تطبيقاته توسعا هائلا.

٧ ـ التفكير الهندسي والتفاضل والتكامل تستخدم الآن في مجالات أوسع من قبل.

٨ ـ اكتشف العالم الرياضي «واينر» نظرية التخمين ثم طورها زملاؤه في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا الى اساس علم الزلازل البترولي الحديث.

٩ ـ ان طبيعة الرياضيات تجعلها تتأثر باستمرار بالمشاكل المطروحة من العلوم الأخرى. ان ابتكار الحاسب الآلي أوجد ابحاثا في الرياضيات البحتة في مجالات تحليل الخوارزميات وابنية المعلومات ومجالات التوافقيات Combinatorics. ويعتبر علم الرياضيات المنفصلة أهم للمتعاملين مع الحاسب الآلي من التفاضل والتكامل وقد طور هذا الفرع من الرياضيات لمواجهة التحديات التي يعرضها علم الحاسب الآلي. وسنجد في المستقبل القريب كتب الرياضيات التطبيقية تحتوي على نظرية الاعداد ونظرية التوافقيات اكثر مما تحتوي على التحليل الرياضي.

١٠ـ علم التقدير يعرض مشاكل وتحديات كبيرة للرياضيات مشابهة لتلك التي طرحتها الفيزياء والميكانيكا منذ جيلين من الزمن.

وفي الختام نشير الى أن الرياضيات مكملة وخادمة وملكة العلوم وان التقدم التقني في الامم يقاس بمدى استيعابها وتطبيقها للرياضيات □

مشاري بن سعود

(- ١٢٣٥هـ)

بقلم: د. محمد بن سعد الشويعر / الرياض

واحد من أمراء الدولة السعودية حاول لمّ شتاتها بعد أن مزقت حملة ابراهيم باشا البلاد، وقضت على القيادة باعتقال الامام عبدالله بن سعود، وأخذه معهم الى مصر، ثم تسييره الى الآستانة حيث قتل هناك، رحمه الله، عام ١٢٣٤هـ، وخربت عاصمة ملكه الدرعية: هدما واحراقا وتقتيلا.

فكان مشاري هذا، وهو أخو الامام عبدالله ممن هرب من هجانه جيش ابراهيم باشا لتسييرهم الى مصر أسرى فقد ذكر الجبرتي في تاريخه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» قصة هربه من عسكر ابراهيم باشا وتوليه الامارة في الدرعية ما نصه: «واستُهِلَّ شهر شوال يوم الثلاثاء سنة ١٢٣٦هـ في ثالثه حضر هجانه من أرض نجد وبصحبتهم أشخاص من كبار الوهابيين مقيدين على الجمال وهم: عمر بن عبدالعزيز وأولاده، وأبناء عمه وذلك أنهم لما رجعوا الى الدرعية بُعَيد رحيل ابراهيم باشا بعساكره، وكان منهم مشاري بن سعود. وقد كانوا هربوا الى الدرعية بعدما رحل عنها ابراهيم باشا وهم: تركي بن عبدالله بن اخي عبدالعزيز وولد عم سعود، الا مشاري فانه هرب من العسكر الذي كانوا مع اولاد سعود وجماعتهم حين ارسلهم ابراهيم باشا الى مصر في الحمراء وهي قرية بين الجديدة وينبع البحر، فذهب الى الدرعية، واجتمع عليه من فر حين قدمت العسكر، وأخذوا في تعميرها، ورجع أكثر أهلها، وقدم عليهم مشاري ودعا الناس الى طاعته فأجابه الكثير منهم، فكادت تتسع دولته، وتعظم شوكته، فلما بلغ الباشا ذلك جهز له عساكر رئيسها حسين بك، فأوثقوا مشاري وارسلوه الى مصر فمات في الطريق»[1].

وقد اختلف الباحثون بشأنه: فمنهم من يرى انه امتداد للدولة السعودية الأولى، لأنه كما قال الزركلي قد: آلت اليه الإمارة بعد أخيه عبدالله بن سعود». وحاول أن يلم شعثها، فلم يستطع. وكانت اقامته في العارض بعد أن دمرت الدرعية[2]. وممن يرى ذلك احمد علي في كتابه «آل سعود»، حيث اعتبره الخامس من أمراء الدولة السعودية الأولى، عندما تمكن من الهرب من جيش ابراهيم باشا بحيلة، وعاد الى نجد فنزل القصيم. وكان يرى نفسه الوارث الوحيد لآل سعود، وبدأ يمهد لنفسه للوصول الى الحكم، واستطاع ان يكوّن له اتباعا في القصيم والزلفي وثرمداء[3]. ومن الباحثين من يرى خروجه على ابن معمر الذي دعا لنفسه بعد سقوط الدرعية، لأنه يرى احقيته بالحكم فهو واحد من الزعماء الفارين من مصر، وممن نفاهم ابراهيم باشا اليها تخلصا منهم لابعادهم عن بلادهم وحكمهم[4].

ومع هذا نجد بعضهم قد أغفل ذكره فلم يحتسبه ضمن حكام الدولة السعودية الأولى، ولم يشر اليه في الثانية التي اعتبرها مبتدئة بالامام تركي بن عبدالله، وما ذلك الا لقصر مدة حكم الأمير مشاري هذا، حيث لم تتجاوز السنة، وهي الفترة التي تلت سقوط الدرعية،

---

(١) ج/٤ ص/ ٢٤٠ — ٢٤١.

(٢) «الاعلام» ج/٨ ص/١٢٦.

(٣) «آل سعود» ص/٧٩.

(٤) انظر «صقر الجزيرة» للعطار ج/١ ص/١٩٦.

وآخذ الامام عبدالله بن سعود الى مصر ثم الى الآستانه حيث اعدم. وفترة الأمير مشاري فترة كلها قلاقل وفتن، زادها اضطرابا مواصلة الحملات المصرية واحدة اثر اخرى واعمالها التي بثت الفوضى في البلاد، وملاحقة هذه الحملات لمن بقي من آل سعود[٥]. أما الأمير سعود بن هذلول فقد اعتبره الحاكم السادس من حكام آل سعود، دون أن يدخل في تفاصيل التقسيم للدولة السعودية بادوارها الثلاثة[٦].

أبرز سماته

رغم قصر مدة حكم الأمير مشاري، حيث لم يطلق عليه اسم الامام كاسلافه. فان سمات القيادة بادية عليه، فقد كان شجاعا مقداما، يتميز بشخصية محبوبة لدى الجميع، وقدرة على تأليف القلوب، وما ذلك الا انه كان له رصيد سابق في سجل اعمالهم، ورغبة صادقة من احاسيسهم، فما أن عاد الى الدرعية مارا بالقصيم والوشم، الا والتمّ الناس اليه، وساروا معه بأجسامهم وقلوبهم، فقد ذكر ابن بشر انه بمجرد ان عاد للدرعية بايعه اهلها، ثم وفد اليه أهل الوشم وسدير والرياض والمحمل وحريملاء وغيرهم من البلدان، وقام معه تركي بن عبدالله عاضدا ومؤازرا، وقدم عليه عمه عمر ابن عبدالعزيز وابناؤه محمد وعبدالله وعبدالملك ومشاري بن ناصر، وحسن بن محمد بن مشاري، وكان هؤلاء قد هربوا من الدرعية وقت هجوم ابراهيم باشا عليها[٧].

وما ذلك الا لما تمتاز به شخصية مشاري من سمات القيادة، وجاذبية الولاء، حيث سعد الناس بمقدمه واظهروا الطاعة والولاء دون عناء، بل فرح الكل بذلك، حيث ارسل اليه محمد بن جلاجل يبايعه حيث أطفأ الله به فتنة في جلاجل وجعله اميرا على سدير[٨]. بل ان ابن معمر الذي نصب نفسه اميرا بعدما حصل لآل سعود ما حصل على يد ابراهيم باشا في حملته على الدرعية. لم يسعه الا المبايعة، لما رأى التفاف الناس حول مشاري لأنه وريث ملك آبائه واجداده. ولمكانته لدى الخاص والعام، بايع وهو يضمر الشر، لأن الموقف يستوجب ذلك ولا قدرة لديه في مجابهة مشاري عندما قدم في عاشر جمادى الآخرة من عام ١٢٣٥هـ كما قال ابن بشر: ثم سار الى الدرعية ومعه عدة رجال من أهل القصيم وأهل الزلفي وأهل ثرمدا وغيرهم من أهل الدرعية، ومعه حملات من الارز والطعام، وقدم الدرعية ونزل في بيت من بيت اخوانه، فانزعج ابن معمر وهم بالامتناع والمحاربة، ثم عجز عن ذلك وجنح للصلح، وبايع لمشاري بن سعود واستقام الامر له. ووفد عليه أهل سدير ورئيسهم محمد بن جلاجل وأهل المحمل وحريملاء وصاحب الرياض وأكثر أهل الوشم وبايعوه كلهم وأهل الدرعية[٩].

وهذا الالتئام الشعبي يدل على سجاياه العديدة من شجاعة وكرم، وتوفر صفات الزعامة والالفة وفي هذا ايضا رد على راشد الحنبلي مؤلف كتاب «مثير الوجد في انساب ملوك نجد» عندما قال عن الأمير مشاري: لم يتم له ما حاول واضطربت عليه قبائل نجد ولم يتمكن من اخضاعهم فلم يزالوا متمردين عليه[١٠].

فرغم أن مدة حكمه قصيرة إلا أن الذي خرج عليه، وأسره تقرّبا الى ابوش آغا الذي وصل الى نجد على رأس حملة تركية هو ابن معمر، الذي كاتب قائد الحملة مخبرا له بأنه اسر مشاري ويطلب اثباته على الولاية مكانه لأنه معهم بما يريدون فحصل له ما اراد اذ اقروه على الامارة الا ان شهامة الامام تركي بن عبدالله وحميته، جعلته يثأر لمشاري فهاجم الدرعية ثم الرياض وامسك ابن معمر وابنه وحبسهما وقال لابن معمر ان اطلقت مشاري بن سعود من الحبس اطلقتك وابنك والا قتلتكما، الا ان عشيرتهما اسلمت مشاري للترك ولما تحقق تركي من ذلك ضرب عنق ابن معمر وابنه انتقاما من عملهما بمشاري بن سعود[١١].

مكانة مشاري

لا شك ان الأوضاع التي تمر بالقائد مهما كانت قوته وقدرته، ذات أثر فيما يقدمه من عمل، وانعكاس على شخصيته، والفترة الزمنية التي مرت بالأمير مشاري من الفترات العصيبة، التي لا يجابهها سوى النوادر من الرجال مقارعة وتمحيصا.

والأمير مشاري بن سعود الذي لم يتحدد لنا تاريخ ولادته، ومقدار عمره عندما تكالبت المصائب على البلاد، لا ريب انه تأثر بكل ما جرى. وتفاعل مع واقعه الذي لا مندوحة له عنه. وفي هذا العهد الذي نتحدث عنه الآن. قد نقل جزء من الصورة التي حلت بالبلاد

(٥) محمد ضرب عنه صفحا أصحاب الكتب التالية: «صقر الجزيرة»، «تاريخ الدولة السعودية»، «قلب جزيرة العرب»، «الدولة السعودية الثانية»، وغيرهم.
(٦) انظر كتاب: «تاريخ ملوك آل سعود» ص/١٧ الطبعة الأولى.
(٧) انظر «عنوان المجد» ج/١ ص/٤٤٥.
(٨) نفس المصدر ص/٤٤٤.
(٩) «عنوان المجد» ج/١ ص/٤٤٥.
(١٠) انظر ص/٤٨.
(١١) انظر «عنوان المجد» ج/١ ص/٤٤٨.

المؤرخ أمين سعيد في مثل قوله: حملت حملة محمد علي الى شبه الجزيرة العربية الفساد والرشوة والخراب والدمار، واحرقت مدنها وقراها، وقتلت ابناءها ورجالها، وذهبت بكل ما كان فيها من عمران، ونشرت الأمراض الخبيثة في أرجائها، فقد كانت حتى دخولها نظيفة من كثير من الأمراض التي لم تكن معروفة بالشرق العربي قبل اختلاطه بالاوربيين(١٢).

فقد حرص الأمير مشاري على مصارعة تلك الاحداث، ولملمة الجراح، والتغلب على الصعاب الجسام، ويتلخص ذلك في:

- الافلات من الاسر والهرب من الآسرين.
- إظهار نفسه لمحبي الاسرة السعودية، الكارهين لحملات ابراهيم باشا وظلمها.
- شجاعته في مجابهة المواقف، وثقته بنفسه.
- شعوره بما آل اليه الناس من حال يرثى لها مع حملات ابراهيم باشا من الفقر والهزيمة.
- حرصه على اعادة تعمير الدرعية ليعود اليها أهلها، ولتستعيد مكانتها.
- رغبة في الا يعود للدرعية الا بزاد وارزاق تسد حاجة ملحة احدثتها الجيوش الغازية التي لم ترحم شيخا لكبره، ولا طفلا لصغره، أو إمرأة ومريضا لعجزهما.
- مكانته لدى الجميع، والتفافهم حوله كقائد يسد فراغا، وأمير مقرب يملأ مركزا هو أحق به، بعد أسر أخيه الامام عبدالله.
- مكانته لدى الاسرة السعودية، وعدم منازعتهم له حيث ساندوه وعاضدوه جميعا.
- حرصه على تجميع القوة والبدء في ملاحقة الغازين في محاولة لابعادهم عن البلاد.

مظاهر القيادة لديه

لقد كان ما رصد عن الأمير مشاري قليلا، لكن هذا القليل ينبىء عن شخصية قيادية، وقوة يركن اليها في الملمات. واذا كان من المظاهر العامة للقائد: الشجاعة والكرم وحسن التصرف، مما ينبىء عن قدرة في الدخول لقلوب الآخرين،فإن سيرة الأمير مشاري بن سعود تتصف بمظاهر من هذه الخصال، رغم قلة ما وصل الينا من أخبار سيرته في مقارعة الاحداث.

ونلمس حسن تصرفه ومكانته في النتف اليسيرة التالية، والقليل ينبىء عن الخلفية الكثيرة لأن كل اناء بما فيه ينضح، كما يقال في المثل.

* ففي مجال الشجاعة: ذكر ابن بشير اخبارا نلمس منها قدرة قيادية. وسابق عمل في الميدان القتالي، ودربة على السياسة العسكرية، ورغم أنه لم يرصد عنه مس الأخبار إلا ما صاحب القتال الدفاعي، ضد حملة ابراهيم باشا، فإن هذا لا ينفي مشاركته في اعمال والده ومساندته لأخيه عبدالله في مواقف عديدة، اعطته حنكة، وقدرة على تبوء مركز قيادي في حصار الدرعية، ثم في مجابهة الاحداث بعد تفكك الأمر بانتزاع القيادة الشرعية، وهدم عرين الأسد للأسرة السعودية الأولى ومحاولة جعل البلاد في حالة فوضى وبدون قيادة، فشمر جاهداً لاعادة الأمر لأهله، رغم تكالب الخصوم عليه من الداخل والخارج.
* يقول ابن بشر في حديثه عن توزيع الجيوش لحماية الدرعية: وفي فرع شعيب غبيرا فهد بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، ومحمد بن حسن بن مشاري ومعهما جمع من أهل الدرعية، وكل جمع من هؤلاء قبله أكثر منه من عساكر الروم، وشدة حرب تلك الناحية عليهم، ومن ورائهم في هذه الناحية ايضا مشاري بن سعود بن عبدالعزيز ومعه جمع من أهل الدرعية وغيرهم في مسجد العيد المعروف من رأس الجبل عند المنازل الجنوبية(١٣).
* في مسجد العيد المعروف: مشاري بن سعود ومعه عدد من رجال أهل الطريف وغيرهم، وكل هؤلاء من أهل المحاجي المذكورين كل محجي مقابله محجي من الروم مبني بالحجارة ملازمين لهم ليلا ونهارا الا محجي مشاري بن سعود وما بعده ممن تقدم ذكرهم في المتارس الأولى فليس عليهم شدة حرب، بل حفاظ لجهتهم، ولا وقع عليهم هزيمة فيما سبق(١٤).
* ثم قال عن المقاتلين عموما: واستمروا في تلك المحاجي قريب ستة أشهر وصار في تلك المدة وقفات عديدة لا يحيط بها العلم، ولا يدركها من ارادها بالقلم(١٥).
* ويشير كل من عبدالله فيلبي في كتابه «تاريخ نجد»(١٦) وصلاح الدين المختار في كتابه «تاريخ المملكة العربية

---

(١٢) انظر كتابه «الدولة السعودية» ج/١ ص/١٢٩ وانظر ما نقله ابن بشر في «عنوان المجد في تاريخ نجد».

(١٣) عنوان المجد ج/١ ص/٣٩٩.
(١٤) نفس المصدر ص/٤٠٤.
(١٥) نفس المصدر ص/٤٠٨.
(١٦) «تاريخ نجد» ص/١٦٩.

السعودية»[١٧]، واحمد علي في كتابه «آل سعود»[١٨]، الى أن هم مشاري الأول بعدما بايعه الناس بالدرعية اخضاع اقليم الخرج الذي لا يزال يقف في صف المعارضة بالنسبة اليه ليبدأ في توسيع رقعة مملكته، وقد استقوا اساس معلوماتهم هذه من ابن بشر عندما قال: وحين استقر الأمر لمشاري بن سعود امر على أهل البلدان الذين بايعوه بالغزو فسار من الدرعية بأهل العارض والمحمل وأهل سدير والوشم وغيرهم وكثير من بوادي سبيع وقصد ناحية الخرج، ونازل أهل بلد السلمية ووقع بينهم حرب وقتال واستولى عليها، وعلى اليمامة واخرج البجادي منها، ثم نازل بلد الدلم وظهر عليه زقم بن زامل صاحبها وبايعه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة، ثم رجع قافلا الى وطنه[١٩].

وهذه من سمات القائد، ونظرة المتعمق، وصفات الشجاعة وبعد الغور، اذ القيادة لا تتم بدون الاقدام، والاقدام لا يحركه الا الشجاعة، والحروب لا يخوض غمارها من تنقصه الشجاعة والصبر، كما يقول الشاعر:

لأستسهلن الصعب او ادرك المنـى
فما انقادت الآمـال الا لصابـر

وفي مجال الكرم تنبيء الحادثة التي اوردها ابن بشر، ونقلها كل من كتب عن الأمير مشاري في سيرة آل سعود، بأنه في عاشر جمادى الآخرة عام ١٢٣٥هـ قدم مشاري بن سعود الوشم، ثم سار منها الى الدرعية ومعه عدة رجال من أهل القصيم وأهل الزلفي وأهل ثرمدا وغيرهم، ومعه أحمال من الارز والطعام[٢٠]، وما ذلك الا لأنه قد حصل في هذه السنة غلاء في الأسعار بالدرعية وغيرها[٢١] فحرص الأمير مشاري على إعانة الناس بتجاوز ما حل بهم من محنة رأفة منه وكرما. لأن الناس مع من أحسن اليهم، ولا إحسان أمكن من إعانة النفس فيما يؤرقها والطعام هو ألزم لوازم النفس البشرية، ومع نقصه لا تفكر في شيء غيره.

أما حسن التصرف فيبرز في طريقته في النفاذ الى بواطن النفوس، عندما رجع هاربا من جيش ابراهيم باشا لا يملك من مقومات الزعامة إلا رصيدا راسخا لأسرته في قلوب الناس ومحبة متأصلة منهم في أي مكان، فاستقبلوه بافئدتهم، وساروا معه بتأييدهم، وبايعوه أميرا عليهم، ولم يستعمل في ذلك شدة ولا عنفا مما اضطر خصمه محمد بن معمر وابنه مشاري الى المسايرة واظهار الاستجابة بهدنة على دخن كما يقول المثل العربي.

وكان من حسن تصرفه ايضا أن سكن الدرعية كرمز للعودة الشرعية بالحكم لأهله، وان استقر في بيت احد اخوانه ايذانا بامتداد الفرع الى الاصل، واتصاله.. ثم بتجهيز الجيش الذي قاده بنفسه الى الخرج ليطمئن الى الدائرة المحيطة بالقاعدة من حيث الاستجابة والولاء.

واتوقع، ولله الحكمة البالغة، ان الأمير مشاري لو لم تمتد اليه يد الخيانة لأسره ثم تسليمه للجيش التركي، الذي أخذه اسيرا من عنيزة، ومد الله في عمره لأصبح ذا شأن.. لأن بوادر أعماله تنم عن شخصية فذة، وقدرة واسعة بدليل ان آل سعود التفوا حوله بما فيهم عمر والامام الهمام تركي ابن عبدالله وأصبحوا اعوانا له مناصرين لجهوده.

وقد اعتبره سليمان الدخيل في مقال نشره في مجلة لغة العرب عام ١٣٣١هـ احد ائمة آل سعود بينما لقبه غيره بالأمير لعدم الاستقرار في وقته، وقال عنه: حاول أن يسترد ما فقده أخوه لكن حالت دون تحقيق امانية موانع جمة[٢٢].

وفاته

ذكر ابن بشر في حوادث عام ١٢٣٥هـ ان ابن معمر كاتب فيصل الدويش وارسل له جيشا من مطير قارن حريملاء بعدة رجال لأهلها وغيرهم وسار مع ذلك الجيش وقصد الدرعية ودخلوها بغتة فدخل ابن معمر ومن معه على مشاري بن سعود في قصره وامسكوه وحبسوه، ثم سلمه جماعته لخليل آغا فارسل الى عنيزة فحبسوه فيها ومات[٢٣] بينما يرى الجبرتي في تاريخه انه مات في الطريق الى مصر[٢٤].

أما الأمير سعود بن هذلول فيرى في كتابه «تاريخ ملوك آل سعود» ان عبوس آغا القائد التركي الذي كان مرابطا بعنيزة هو الذي قتل مشاري[٢٥].

وبوفاة الأمير مشاري وقيام الامام تركي بعده انتقل الملك من اولاد عبدالعزيز بن محمد بن سعود، الى ذرية اخيه عبدالله ابن محمد بن سعود ولا يزال فيهم حتى اليوم □

(١٧) «تاريخ المملكة العربية السعودية» ص/٨٠
(١٨) آل سعود ص/٢٠٢.
(١٩) «عنوان المجد» ص/٤٤٦.
(٢٠) نفس المصدر ص/٤٤٥.
(٢١) نفس المصدر ص/٤٤٣.
(٢٢) مجلة «لغة العرب» الجزء ٥ من السنة ٣ ذي الحجة عام ١٣٣١هـ ص/٢٣٠ الصادرة ببغداد.
(٢٣) انظر «عنوان المجد» ج/١ ص/٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩.
(٢٤) عجائب الآثار ج/٤ ص/٣٤١.
(٢٥) انظر ص/١٨.

من قصص الخليج العربي:



أخلاق النوخذا

بقلم: منذر الشعار / الكويت



هو، وهي

انها قصة الأزل، بين رجل وامرأة، وهنا في الكويت، كانت بين «هو» وبين «هي» أمور خاصة.....

كان «هو» ابن طواش، وكانت هي بنت «نوخذا».

الطواش تاجر اللؤلؤ، وقد يمد سفينة الغوص بالمال، والنوخذا رئيس السفينة، وربانها... الطواش اغنى واقنى، والنو خذا أشد مجابهة للبحر والطبيعة وانتزاع الرزق.

كان «هو» يسمى محمودا، و «هي» تسمى لطيفة.

وقد كانا شابا وشابة متحابين جرى فيما بينهما هذا الحب الذي اذا هجم لم يعرف فرقا من طبقة ومال وسن، وقد هجم الحب يومئذ على محمود ولطيفة وقد كانا شابين في أحياء الكويت، وكان الحب، كالعادة، من نظرة اعقبتها نظرات، ثم تلفت من القلب وخفوق، ثم انعقد هذا الحب حتى صار مذهبا واصرارا، ثم انحل سهرا وعذابا أو يكون الوصال.

وقال محمود للطيفة في بعض اللقاءات الخاطفة:

— وماذا يكون الوصال غير الزواج.

قالت:

— وكيف السبيل الى الزواج؟

قال:

— الخطبة.

قالت:

— فينبغي ان تسرع في اخبار اهلك للخطبة، فان ما يكون الآن نهزا وسرا معرض لأن يشتهر ويحس به.

قال:

— سأفعل والله.

قالت:

— فأسرع، فان موسم الغوص سيتحرك، وسينطلق ابي في سفينته فلا يعود يعي شيئا.

قال:

— إنما مرادي الموافقة، فإن اطمأننت اليها وعرفت انك لي كان الانتظار بعد ذلك متعة لا اوجاعا.

قالت:

— والخطبة هذه امرها ليس يسيرا.

— ويحي.. لماذا؟

ـــ هل يرضى اهلك؟
ـــ نعم، اذا عرفوا رغبتي وافقوها.
ـــ هيهات.. ان الاهل دائما يريدون ان يختاروا بأنفسهم حياة ابنهم، وبيته المستقبلي، وان وجدوا ابنهم قد اختار لنفسة شعروا كأنهم يملي عليهم ويؤمرون؛ وفي مثل هذا ما يعوق رغبتك.. الا ان تجاهد وتناضل.
ـــ سأجاهد ـــ ويحك ـــ وأناضل.
ـــ وفقك الله.

وابتسمت له ابتسامة القته في جنون الحب من جديد، ثم تلففت بعباءتها، أكثر من تلففها ومضت.... يا للعينين ويا للقوام.....

ويا لهذا الشيء الذي ينعقد بين رجل وامرأة حتى يجعلهما ـــ او احدهما ـــ حطاما ان لم يجعلهما ضراما. وكان لا بد من مفاتحة الأب.

وفاتحه محمود...

وكان الأب، ذلك الطواش الغني محبا لابنه، وادعا حلو الشمائل لا يحب تعقيد الأمور، ومنذ أعلن ابنه رغبته في الزواج هش الأب له، ولما عرف من الخطيبة الرغيبة لم يأنف ولم يعاند ولم يتصعب.

ـــ النوخذا عبدالله حسن السيرة، طيب المعاملة، أمين، ولقد كنت أود أن اخطب لك يا محمود بنت طواش أو تاجر كبير، ولكنك اخترت او اختار لك قلبك.. شابة بعينها.. بنت نوخذا.. فلا مانع.. سأخطبها لك ان شاء الله.. ولكن دعني قليلا أشاور أمك وأهلك ولا بد يا بني من مشاورة بعض الصحب.

وسكت محمود، راضيا بهذه المدة المقترحة للمشاورة، على مضض، فانه كان يريد الاسراع، والمباشرة الفورية.. ولا يحب، او لا يطمئن حسه الداخلي وقلبه المتلهف الى هذه الاسترخاءات الوقتية، ولكنه سكت ولم يحتج اذ رأى أباه قد رد عليه أجمل الرد، ووافقه ووعده أحسن الوعد.. ولكن الآباء بالهم طويل، وفيهم حلم وأناة، فحمل محمود نفسه على ما لا تطيق من مهل وتصبر...

ثم قال ابوه بعد مدة:

ـــ قد حسن عندي وعند امك وسائر اهلك ان اخطب لك بنت النوخذا.

فطار قلب محمود سرورا، وقال:

ـــ متى؟

قال الأب:

ـــ الآن.. ولكن النوخذا على أهبة الرحيل فقد صاح الغوص وهجم الموسم.

ففوجيء محمود بهذه وقال بصوت مختنق:

ـــ أتعني أنك ستؤجل الخطبة الى ما بعد الغوص؟

قال الأب بتضاحك:

ـــ لا.. أنا أيضا طواش، وسفينتي توشك ان تتحرك، ومجالنا كلنا هذا الخليج، فسألقى النوخذا في البحر وأخطب لك لطيفة. اطمئن.

قال محمود:

ـــ فأنا احب أن أذهب معك هذه المرة.

قال الأب:

ـــ انك قلق، واني اعدك وعدا حسنا، ولكن ان شئت ان تذهب معي، فاذهب.

وتحركت سفن الغوص، وتبعتها سفن الطواشين وأضحت سفينة ابي محمود تتهادى في الخليج، ومحمود يتلفت اين سفينة والد لطيفة، حتى استبد به القلق والشوق الى أن قال له ابوه يوما.

ـــ مالك يا بني، لا ينبغي ان يبدو منك كل هذا، وعليك ان تتماسك وتبدو رجلا، فما هي إلا خطبة ورغبة، وقد وافقناك ووعدناك، وها نحن أولاء في البحر، وسأخطب لك صاحبتك.

قال الابن:

ـــ ولكنك يا أبي متمهل بطيء، فقد مضت أيام تتلوها أيام، وأنت لا تفكر في العثور على سفينة والد لطيفة.

قال الأب:

ـــ سأعثر عليها يا بني، ولكن دعني أقوم بعملي والقى السفن، ثم ان سفينة من تريد موجودة، وسنجدها قريبا، ولن نعود الى الكويت الا ولطيفة خطبك.

قال محمود وهو بين الرجاء واليأس والفرح والخوف، والاطمئنان والقلق:

ـــ هل تراه.. يرضى..؟!

قال الأب:

ـــ سبحان الله، ولماذا لا يرضى، بل سيكون مسرورا سعيدا واجدا نفسه في نجاح.. أنسيت ان النوخذا.. أقل من الطواش.

قال محمود:

ـــ أقل؟؟!!

قال الأب كالمعتذر:

ـــ إنما أريد أن.. ان سفينة الطواش أكثر رفاها وراحة وأثمن من سفينة الغوص وعندما ادعو النوخذا الى سفينتي فانه سيسر ويجد نفسه سعيدا انه يأتي الى سفينتي فيجد الراحة والبلهنية، ويصيب من طعامنا الذي لا يتيسر لسفن الغوص ويشرب من شرابنا.. ويحك يا محمود، سوف يقبل النوخذا اذ اخطب اليه ابنته وهو في ذروة انغماره بسحر سفينتي وكثرة رخائها وثرائها، فيرضى ويكون لك ما تريد.. هل اطمأننت الآن؟

ـــ نعم، ولكن المحب دائما يتحسس العوائق امام رغباته، فعسى يصدق ظنك وينجح سعيك يا والدي.

ومرّت مدة يسيرة صادف بعدها أبو محمود ومحمود سفينة النوخذا المطلوبة، وتصرف الوالد تصرفا جد طبيعي؛ طواش يبحث عن لؤلؤ، واقترب بسفينته من سفينة النوخذا، وكلمه وحياه ودعاه الى سفينته للتفاهم، وكما ظن؛ سر النوخذا وجاء الى سفينة ابي محمود سعيدا راغبا وجلس في السفينة منغمرا كما قال الوالد في الجو المترف الرخي، وجيء بالطعام النفيس فأكل وتمتع، وادير الشاي على غير ما يدار في سفينة الغوص واظرف والطف، وكان في سعادة وراحة، ثم بحث في امر المال واللؤلؤ وشؤون معروفة.. ثم.. وبعد أن امتلأ النوخذا حبورا وأخذ بما رأى واحس وتمتع قال الطواش:

— ان لي اليك امرا آخر احب أن تريحني منه.

قال النوخذا وقد انتبه للهجة الجديدة:

— ما هو؟ قل عافك الله.

قال:

— باختصار.. بنتك لطيفة اريدها لابني محمود زوجة.. فما تقول؟

وفوجيء النوخذا، ووجم الوجمة المنتظرة في مثل هذه الأحوال، لكن لم يبد عليه أي شيء واضح، لا سرور ولا غيره، كان وجومه صامتا، ورد فعله القسماتي حياديا، وما استطاع الاب أن ينفذ الى ما خلف وجهه ويتغلغل الى داخل ضميره، وان كان الطواش ليتوقع الرضا والقبول والبشاشة، فانه يرى ان ابنة النوخذا لطيفة لن تجد خيرا من محمود شبابا وغنى وكفاية، ولكن الطواش الآن في شبه عجب، اين البشاشة واين القبول واين بوادر الرضا ثم سيوله.. لكن الطواش طاف بفكره، سريعا، ان النوخذا لا ينبغي — ولا يليق — ان يسارع الى الرضا والقبول من أول كلمة، ولا بد من التظاهر بالتفكير، ولا بد من الوجوم والصمت الذي يحفظ للمرء قدره ويعلي كرامته، واذن.. سيتمزق الوجوم عما قليل، ويعلن النوخذا رضاه.. ولم يكذب ظن الطواش، فانه لم يطل وجوم النوخذا، وتكلم وأجاب أبا محمود.. لكن بالرفض..

— يا الهي... ترفض؟!

— نعم،فاني لا ارضى أن يتزوج ابنك ابنتي.

قال الطواش وقد وجم ايضا ثم تكلم:

— ولماذا؟

قال النوخذا:

— لست مجبرا أن أبدي الاسباب؛ لكن البنت ما زالت صغيرة، وعندنا في العائلة تفكير في مستقبلها غير تفكيرك فيه.. فعفوا..

وطار صواب الطواش، فما فكر اي تفكير في الذي جرى الآن، وتخايل ابنه وقد علم الخبر كيف تكون حاله، بعد كثير التفاؤل وبسيط الأمل...

وقال للنوخذا:

— ولكن.. انت تعلم ان ابني.. وتلعثم الطواش.. ماذا يقول؟ الرجل سد الطريق بقوة...

وقال النوخذا ثانية، يجيب تساؤل الطواش المتلعثم:

— لا تجادل أرجوك، هذه أمور دقيقة، خطبت فأجبت، ويغفر الله لنا ولك.

وقام النوخذا ليرجع الى سفينته، ومشى الى طرف السفينة لينزل في الزورق، فما رآه الطواش أملأ في عينه ولا أكبر مما يراه الآن، وكان محمود يتسمع من طرف خفي، ولم يكن ينتظر ان يرجع اليه أبوه فيخبره، فعلم بالجواب الصاعق، ودارت الدنيا في رأسه وعينيه، وظل واجما هو الآخر طوال مخر السفينة في طريق العودة الى الكويت.

ثم كلمه ابوه.. قبل الرسو:

— لا تحزن يا بني.. فانها أقدار، ومقسومات، وعسى الله أن يبدلك خيرا من بنت النوخذا.

قال الابن وهو مليء الاحزان:

— لا أحد خيرا من لطيفة، وانه حب يا أبي، وعهد قلب، ولو أن المسألة مسألة جاه ومنزلة لتسليت عنها، ولكن لطيفة هي مليكة الفؤاد.

والله يعلم كم عانى محمود في طريق الكويت وبعد الوصول، كم سهر وكم تعذب، حتى اضحى يكره حياته وبدا منه انه وهو في الكويت ليس في الدنيا...

ولكن عمة له عجوزا، قالت له وهي تلاحظه منذ وصل:

— لا تقلق يا محمود، فان لطيفة اخيرا هي لك.

وفوجيء محمود وقال لعمته الصامتة أكثر وقتها:

— وما.. وما يدريك يا عمة؟

قالت:

— قد أُريت ذلك.

وصاح:

— وكيف اريتيه؟

قالت:

— لا ادري، ولا تلحف، لقد اريته وكفى، لكن لطيفة سريعا ما تصير اليك.

وأحس محمود انه في دوامة... ايرجو وقد قنط؟ ايسر وقد حزن؟! وكيف السبيل الى لطيفة وابوها رافض غير مجيب.

ومرّت ايام.. تتلوها أيام.. وعادت سفن الغوص.. كلها.. وانما كان ابو محمود طواشا فعاد سريعا.. وكان محمود قد لقي لطيفة قبل وصول سفينة أبيها، خلسة كالعادة، فما كان منها إلا الحزن مثله، والعجب ان

يرفض ابوها محمودا، وقالت لمحمود:
— ألم يقل ابوك لأبي.. انك.... انني...
قال محمود:
— ويحك يا لطيفة! أيبوح أبي لأبيك بالحب بيننا.. على أن أباك لم يترك مجالا ولكن أسرع الى سد الطريق دون أي مهل، ولم يترك لأبي فرصة لمحاورة.
قالت:
— انه لعجب كل العجب.. ان يفعل أبي ذلك، فما فيكم مطعن، ابدا.. فمماذا يخشى أبي.. وما عليك الا ان تنتظر حتى يعود أبي فأعلم منه لم رفض.
قال:
— وكيف تعلمين؟
قالت:
— لا بد ان اتسمع واتنصت، واستنتج.
قال:
— وماذا استفيد من علمك بالسبب.. ان الرفض قد وقع.. وهل يخفف عن المحروم ان يعلم لم حرم؟
وافترقا.. ولكن محمودا عاش برهة في هذا الأمل الطفيف.. ان يعلم سبب الرفض فيسعى ليصلحه. فلما عادت سفن الغوص احتالت لطيفة حتى ابلغت محمودا ان دع اباك يعيد الكرة بسرعة.
— يعيد الكرة؟؟؟ كيف؟؟
وابطأ متفكرا متحيرا.
فجاءه من لطيفة حث وتأكيد:
— دع أباك يعيد الكرة.
وفاتح اباه، واستشار الأب الأسرة، والعمة خاصة. فقيل له: وما يمنع من ذلك. والخطبة تحتمل التكرار.

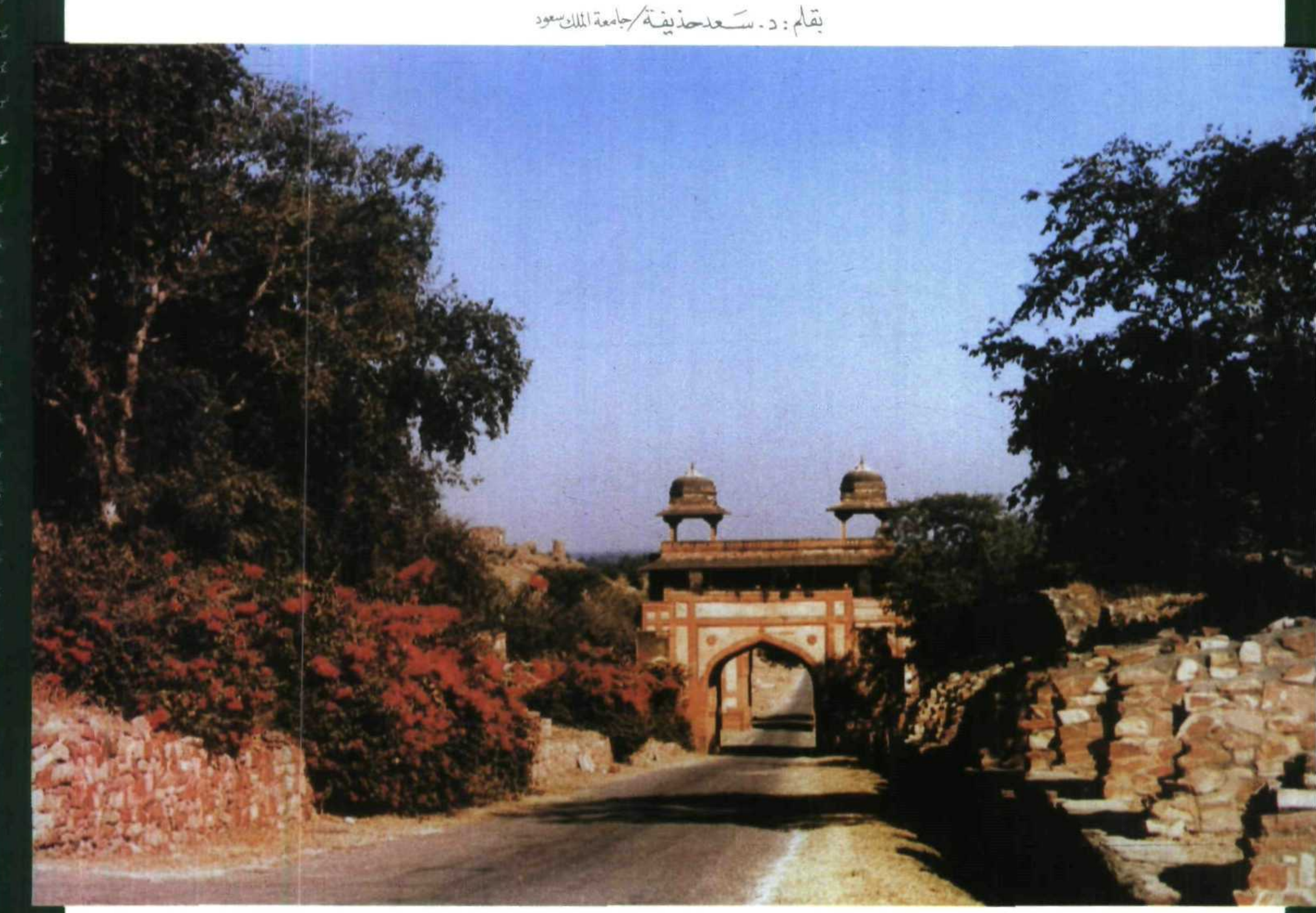
فأرسل الأب للنوخذا اني آت اليك في بيتك، وذهب اليه راضخا لرغبة ابنه وهو يعلم أن النوخذا هو هو؛ ولن يجيب ولن يرضى. ولكن ابنه شرح له وبين له حدس عمته خاصة، ورسالة لطيفة، فذهب الأب، ودخل على النوخذا فوجده هاشا باشا، ثم بعد شرب الشاي وبعض الحديث عاد فطلب البنت وخطبها لابنه محمود فاذا بالنوخذا يوافق وكان مفاجأة سعيدة. ولكنها مفاجأة.. غير متوقعة للأب، وقال، ولم يخف، للنوخذا:
— سبحان الله، ما اتيت اليك اليوم الا مجاهدة لنفسي، ونزولا عند رغبة وحيدي، وكنت ابيت قبل واليوم تسرنا بالرضا.
قال النوخذا:
— ولم تسأل.. أفلم يجب طلبك، ويرتح بالك، ويسعد ابنك؟!

قال الطواش:
— بلى، ولكني متحير، ما كان رفضك قبل متوقعا، وكذا الآن.. قبولك ما كان متوقعا: فما القصة؟
فسكت النوخذا برهة وجيزة كأنه يستجمع كلاما وفكرا ثم قال:
— رفضت في سفينتك، وقبلت في بيتي.
وقال الطواش شبه مصدوم:
— لم أفهم.
قال النوخذا:
— النوخذا حين يدعى الى سفينة الطواش يشعر بالسعادة وبالحظ، اذ يرى الرفاه الذي لا يستطاع في سفن الغوص، وقد دعوتني يومئذ فجئت الى سفينتك وانغمرت في الرخاء، ثم خطبت وطلبت، فشعرت يومئذ انني ان اجبت ورضيت فكأنني امضي امرا مفروضا واطيع رئيسا، فأبيت، ولو كنت رضيت لاحتقرت نفسي، انها اجابة تأثرا بجو النعيم، أما اليوم فأنا أجيب بمحض رغبتي، وبلا مرجح، انت في بيتي وأنا وأنت انسان لانسان وكويتي لكويتي، لا طبقة ولا خداع رفاه.
وشده الطواش؛ فما ظن أنه يسمع مثل هذا الكلام من أحد، ولكن كل ما قاله النوخذا صحيح؛ اولا لا ينبغي (استحضار) ولي المرأة، وخطبتها منه، ولكن ينبغي السعي اليه اكراما للقضية، وانه — ثانيا — لا يليق التعريض بالرفاه والرخاء للمخطوب منه وهو العائش في الشظف والخشونة، فان هذا ليس من الخلق الكريم.
وتم الأمر... وجرى الى نهاياته السعيدة.
يقول محمود للطيفة في ذات أمسية وادعة في بيتهما الجديد:
— اتذكرين.. كان ابوك معلما وهو تخطب منه ابنته، انت.
وتقول:
— نعم.. لم يرد ان يزوجني اليك الا على كرم، لكيلا يقال بعد: اخذها ابو خطيبها بجاهه ونعيمه.
ويقول محمود:
— كان بعيد الغور، رفض منظورا اليه من فوق، ورضي لما صار النظر على سواء. ولكن قولي: كيف عرفت من أبيك الرضاء لما رجع من الغوص؟
قالت لطيفة:
— وأنت كيف وثقت بعمتك وحدسها ومن أين لها ذلك الحدس الصائب؟
وتبسم محمود وتبسمت لطيفة: كانت اقدارا وتتبعات، وقراءة علوم في وجوه وحركات، أو ليس لأهل البحر المكافحين احداث واحداس خاصة؟؟ □

مدينة الفتح الإسلامية في سيكري

(٤)

بقلم : د . سعد حذيفة/جامعة الملك سعود



منزل «النوبة» و «نقار خانة».

استعرضنا في أعداد ثلاثة سابقة، في اطار بحوثنا عن "مدينة الفتح الإسلامية" مقدمات لندخل منها
إلى صلب موضوعنا عن هذه المدينة التاريخية والمتمثل في اطلاع القارئ على معالم هاتيك المدينة، حيث أشرنا
باختصار إلى سلاطين المغول ومجيئهم إلى "شبه قارة الهند والسند" ثم بحثنا في الخلفية الاجتماعية للسكان عند اختيار
"قرية سيكري" مقراً لاشادة عاصمة جديدة للسلطان "أكبر" عليها، وكيف كان يعيش ذلك المجتمع، وفئاته الاجتماعية
المختلفة، وفي العدد الأخير، تكلمنا عن أسباب اختيار السلطان أكبر تلك القرية لتكون مكاناً لبناء "مدينة الفتح".

أما موضوع هذا العدد، والأعداد التالية، فسوف نركز فيها على المعالم التاريخية الكبيرة،
التي أقامها ذلك السلطان، مقسمة إلى فئات، حسب اختصاص كل معلم أو ذلك، من ناحية، وحسب حجم،
موضوع البحث فيه، وما تتطلبه الصفحات المخصصة لموضوعنا في "القافلة" من ناحية ثانية، وسنجد أن السلطان "أكبر" لم ينس
شيئاً من المباني الهامة التي تتطلبها دولته، وادارتها، ذات المساحات الواسعة، والصيت الذائع آنئذ.

وتبدأ هذه المواضيع بموضوع المباني الادارية في "مدينة الفتح"، ووظيفة كل مبنى، والقيمين عليه، ثم نشرع في شرح تلك المعالم من أولها،
أي من أول وهلة تبرز فيها المدينة للزائر عندما يقترب منها، حيث تبرز له أولاً بوابة "أكرا" وأسوار المدينة من الشرق.

مباني مدينة الفتح الادارية

مساحة المدينة وأسوارها

تحتل «مدينة الفتح الاسلامية في قرية سيكري» في «بلاد الهند والسند» ذات الشكل المستطيل، مساحة كبيرة من اراضي التل المرتفع وجزءا من السهل المنبسط الذي يحيط به. وقد بلغت مساحة الأرض، والتي حددت لبناء تلك المدينة الاسلامية حوالي احد عشر كيلا مربعا، وحيث تحتل مبانيها قمة ذلك التل الذي يبلغ ارتفاعه اكثر من خمسمائة متر. وقد يزيد على ذلك، وخاصة من جهته الجنوبية الغربية، عندما يطل المرء من بوابة المسجد الجامع، الجنوبية، والتي تعرف بـ «البوابة العملاقة» «بلند دروازه».

إن مساحة الأرض، التي تقع داخل الأسوار المحيطة بالمدينة، كبيرة جدا؛ وتزداد كبرا وسعة اذا ما أضيفت اليها تلك البحيرة الاصطناعية، والتي تحتل حيزا كبيرا من الأرض المنخفضة الواقعة الى الجهة الشمالية الغربية من المدينة.

و «مدينة الفتح» تحيط بها أسوار من ثلاث جهات، من الشرق، والشمال الشرقي، ومن الجنوب والجنوب الغربي. ويبلغ طول الأسوار أكثر من عشرة أكيال طولا؛ وتمتد البحيرة لأكثر من ثمانية اكيال (حيث تقع الى الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وهي بحيرة اصطناعية كبيرة الحجم) أما ارتفاع سورها فيبلغ حوالي عشرة امتار تقريبا، وعرضه حوالي مترا ونصف المتر؛ ويتوج قمته صفائح من الحجارة الكبيرة، مرصوفة ببعضها البعض، في شكل هرمي.

بوابات المدينة

يتخلل سور المدينة المبني من الحجارة الرملية الحمراء اللون، ذات صلابة يسهل نشرها، وتقطيعها، في كل زاوية، او منعطف. وله عشرات الحصون المحكمة البناء؛ اضافة الى البوابات الكبيرة والعالية، ذات البناء القوي، في تصميمه وتنفيذه. وقد يزيد ارتفاع الحصن الواحد، او البوابة الواحدة على خمسة وثلاثين مترا. كما يتخلل بناءها ابراج للمراقبة، حيث كان يرابط في كل حصن عدد من جنود الحراسة، على مدار الساعة. أما البوابات، والتي تتخلل السور، فقد بلغ مجموعها تسع بوابات كبيرة الحجم، وتبدو كل بوابة وكأنها قصر كبير، أو قلعة في حد ذاتها، اذ ان كل بوابة، تقريبا، تتكون من ثلاثة طوابق وبعضها من أربعة ادوار وربما أكثر من ذلك؛ ويتسع كل دور لعشرات من الجنود.

يقع على جزء السور الشمالي بوابتان، هما: بوابة «دهلي»، وبوابة «لال»؛ وعلى السور الشرقي بوابة «اكرا» وهي المدخل الرئيسي للمدينة، وبوابة «بربال»، وبوابة «جدنابول»؛ وعلى السور الجنوبي بوابة «كواليور» وبوابة «تهرا»، وعلى منحنى السور الجنوبي الغربي بوابة «جور» وعلى جزء السور الغربي، الى الجهة الجنوبية الغربية منه، تقع بوابة «احمد».

يقيم في هذه البوابات، التي هي بمثابة مراكز أمنية للعديد من جنود الحراسة، حرس السلطان المغولي الخاص؛ حيث كانوا يراقبون كل تحركات الذاهب والقادم للمدينة، تقريبا،





البوابة الشرقية لمدينة الفتح «بوابة اكرا».

كما لا يفوتهم ان يلمجوا كل من يحاول الاقتراب من السور، ولو من بعد الكيلين، فالسهل منبسط، لا نتوء فيه ولا ارتفاع قد يحجب من يقترب من السور، ممن يريد سوءا. اذ أن تلك السهول مكشوفة بالكامل امام ابراج المراقبة.

مبـاني المدينة الواقعـة قرب المدخـل

يوجد بعض المباني الآن عند المدخل الرئيسي «بوابة اكرا» ويسير باتجاه وسط المدينة وأهم تلك المباني: مبنى منزل النوبة، ومبنى أو مصنع سك العملة، ومبنى الادارة العام.

منزل النوبه «نقارخانة»

بعد أن يجتاز الداخل «بوابة اكرا»، وعلى بعد عدة أمتار، يجد أمامه أول مباني مدينة الفتح، بعد السور والبوابة الرئيسية. وهو مكون من طابقين، مربع الشكل، ويقوم على أربعة اعمدة؛ وله اربع بوابات كل واحدة على شكل قوس، وتحتل الطابعين الاسلامي والهندوسي. فأقواس بوابتي الشمال والجنوب يظهر فيهما الطراز الاسلامي بشكل واضح، أما البوابتان الشرقية والغربية فتحملان الطابع الهندوسي. ويسمى هذا المبنى بـ «نوبت خانة» أي منزل المناوبة، حيث يقوم حراسه بالدوام الرسمي، وعلى مدار الساعة، بالتناوب على حراسته؛ كما يسمى «نقار خانه» أي «منزل ضارب الطبل». فانه الى جانب مهام الحراسة، يقوم افراد من الجنود المخصصين لهذا العمل بضرب الطبول، والدفاف والموسيقى، لاغراض عديدة، ولاعلام الناس بها. ولعل من أهم هذه الاغراض:

١ ـــ دق الطبول خمس مرات في اليوم والليلة، بغرض الاعلام بدخول وقت كل صلاة، من الصلاوات الخمس.

٢ ـــ دق الطبول، والمزامير والموسيقى لتعلن عن مقدم السلطان، فور اقترابه ودخوله من بوابة «اكرا»، كما يكرر ذلك عندما يرحل من المدينة.

٣ ـــ دق وضرب الآلات عندما يريد السلطان المغولي اعلام الناس بنشرة، أو اعلان مرسوم أو بقرار يصدره، فيجتمع الناس لتلقي الخبر وغالبا ما يجتمعون في مكان مخصص، سوف نتكلم عنه فيما بعد، ويسمى ذلك المكان «الديوان العام».

٤ ـــ عندما ينزل ضيف على السلطان ودولته، فان الآلات تضرب وتدق مرتين، عند دخوله ونزوله؛ وعند ترحاله خارجا منها.

لذلك لا يجد المرء غرابة عندما يزور تلك المدينة، فيسمع عن منزل يطلق عليه «منزل الموسيقى».

أما القيمون على هذا العمل فهم أناس من جند السلطان المغولي، من ذوي الأمانة، والثقة، والكفاءة؛ لأن من واجباتهم، اضافة الى ما ذكر أعلاه، المشاركة في حراسة المدينة من الداخل، ونشر الأمن والعمل على استتباب النظام من داخل المدينة أيضا(١).

مبنى السكة والخزانة

اذا ما سار الزائر، وترك «منزل النوبة» خلفه باتجاه الغرب، وهو يسير في الطريق الشمالي فسيجد في أعلى التل على يمينه مبنى آخر، مربع الشكل، وله قباب من الطوب الأحمر، وسرادق من الصخور الرملية الحمراء، تحيط بالبهو الذي يتوسط المبنى. ويمكن الدخول الى هذا المبنى من احدى بواباته العديدة، على الجهات الأربع، ولكن أهمها تلك التي تقع الى الجهة الجنوبية، والتي تطل على الطريق الرئيسي. وهذا المبنى هو مصنع أو معمل لسك النقود بأنواعها، الذهبية والفضية، خلال حكم السلطان «اكبر»، وسنوات بقائه في تلك المدينة. حيث كان العمال المتخصصون والفنيون يقومون باذابة المواد الخام في آنية خاصة، لاستخراج ذلك المعدن الثمين، ومن ثم سكه عملة نقدية صافية على احجام مختلفة. ومن ثم عدها في صرر معينة، تحوي كل صرة عددا معينا من النقود الذهبية او الفضية، دراهم، أو دنانير، كاملة. ولعل هذا المبنى كان يشمل ايضا سكن الفنيين المتخصصين، بدليل ضخامته وكبر حجمه، وتعدد نوعية البناء فيه بوضوح، وقد بدأت عوامل الزمن تؤثر على هذا المبنى.

يقع الى الجنوب من مبنى سك العملة المذكور مبنى آخر أصغر حجما منه، على الجهة المعاكسة له. وتكاد تبلغ مساحته ١٩×٢٠ مترا، أي حوالي ٣٨٠ مترا مربعا. ويبدو لنا أن هذا المبنى كان يستخدم كمبنى مساعد للخزينة، حيث يتم فيه اعداد النقود، وتقسيمها الى فئاتها المختلفة؛ ثم عدها، ووضعها في صرر؛ ومن ثم نقلها الى خزينة السلطان «اكبر» الخاصة، والتي تقع داخل المنطقة السكنية الخاصة بالسلطان واسرته على ما يظهر لنا، رغم ان هذا القول مخالف لما اورده كل من طرق هذا الموضوع من مصنفي «بلاد الهند والسند». لقد اطلقوا على هذا المبنى الصغير «مبنى الخزانة» لتخزين أموال الدولة بداخله. وهذا القول عندي غير صحيح، اذ لا يمكن ان يكون كذلك، لأسباب كثيرة، ولعل منها ما يلي:

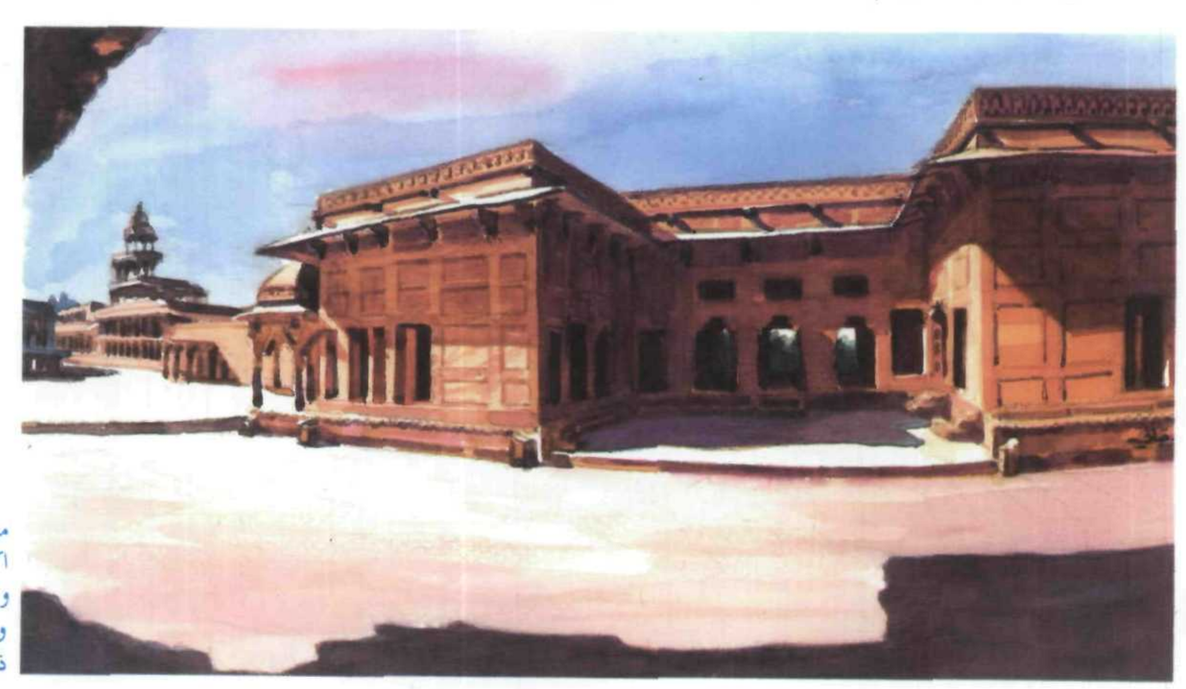
١ ــ ان المال شيء ثمين، فهو يأتي بعد النفس والولد، وحيث أهميتهما للانسان. فعليه تتوقف حياة الدولة، واستمرارية حكم هذا السلطان او ذاك الملك، فلا يمكن ان تكون بعيدة عن سكناه الخاص. ولذلك، فهذا المبنى، كما نرى، يقع خارج «الديوان العام»، الذي يدخل اليه عامة الشعب، على اختلاف طبقاتهم، ونحلهم، وفئاتهم، بل انه يقع بعيدا عنه، على الطريق العام للمارة الى داخل المدينة، أو الى خارجها.

٢ ــ يوجد مبنى خاص، يقع داخل المنطقة السكنية الخاصة بالسلطان وحاشيته. وهذا المبنى في شكله وتصميمه، يمثل المبنى المثالي للخزينة العامة للدولة. لهذا فانني ارجح ان هذا هو المكان الصحيح، الذي كانت نقود السلطان، ذهب وفضة، تخزن، في شكل صرر، قريبة منه حيث يقوم بالاشراف عليها وحراستها الثقات من رجال دولته.

٣ ــ تذكر المصادر ان هذا المكان يقع في المنطقة المعروفة خطأ، بمكان لعبة «الغميضة»، حيث يزعم بأن السلطان جلال الدين أكبر كان يلعب هذه اللعبة مع حاشيته.

٤ ــ يذكر ابو الفضل، وهو المؤرخ الأول لعصر السلطان اكبر، والمعاصر له، واحد كبار رجال دولته، بأن هذا السلطان كانت له ثلاث خزائن منفصلة كل واحدة عن الأخرى. فكان هناك:

أ ــ خزينة النحاس؛



مبنى الخزانة حيث كان السلطان اكبر يخزّن امواله واشياءه الثمينة، ويرى في آخر المبنى كشك صغير وهو المقعد الفلكي كما يرى القصر ذي الطوابق الخمسة في آخر الصورة

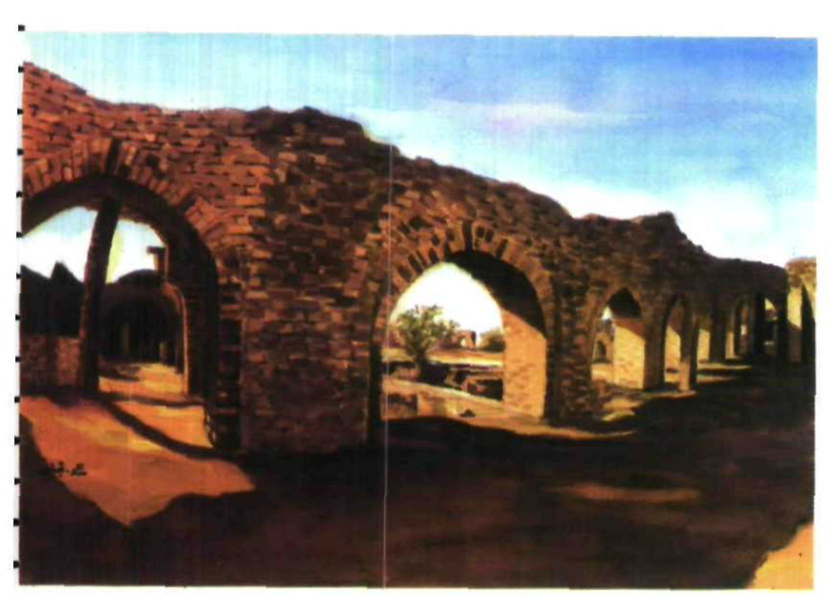
ب ـ خزينة الفضة والذهب.
جـ ـ خزينة اللآلىء والجواهر، والأحجار الكريمة.
وكما يذكر هذا المصنف، فإن تلك الخزائن كلها كانت متجاورة بعضها الى جوار بعض. لذلك، فإنه لا يعقل ان تكون خزائن الدولة خارج سكن السلطان الخاص، بل وعلى العكس من ذلك، فكيف يمكن قبول الرواية التي تقول بأنها كانت تخزن في ذلك المبنى على الطريق.

ه ـ هناك رواية أخرى تذكر بأن هذه الخزائن كانت ضمن مبنى الديوان الخاص، لذلك كان السلطان المغولي أكبر يجلس الساعات الطوال، أثناء الليل، يتفقد جواهره ولآلئه، في معزل عن العيون.

بناء على ما تقدم، فإن الذي يظهر لنا وأرجحه أن المبنى الذي يقع خلف الديوان الخاص، هو المكان المناسب لتخزين أمواله وكنوزه. يوجد هناك، وفي داخل مجمع المباني الخاصة الى جوار «الديوان الخاص» الى جهته الغربية، مبنى صغير، ومع ذلك فهو معقد التصميم والتنفيذ. فهو يتكون من غرفة واحدة وسطى، مساحتها خمسون مترا مربعا؛ ويتبع تلك الغرفة غرفتان اخريان، احداهما الى الشمال، والأخرى الى الجنوب منها. وعلى الرغم من البساطة التي نفذت بها تلك الغرف، فقد احيط بها من جميع اطرافها الداخلية، وعلى شكل دائري من أعلى، رواق مرتفع، بشكل جرف، او مصطبة. يقع في كل ربع، من مساحتها، فوهات تتسع كل واحدة منها لادخال اشياء بحجم الصناديق الصغيرة التي تحتوي على الأشياء الثمينة. وفي أعلى كل فوهة تبدو ثقوب كعلامات يستدل على أنها لمفصلات كانت مركبة لاقفال كبيرة الحجم، تغلق ابوابا ثقيلة مصنوعة من صفائح الحجارة الرملية الحمراء. لذلك، فلا بد أن يكون هذا المكان هو عين المخزن المناسب الذي كان السلطان «اكبر» يحتفظ بخزائنه فيه، رغم ما يشاع في الاوساط الشعبية وفي بعض المصنفات السياحية من أن هاتيك الغرف الثلاث كانت بمثابة المكان الذي كان السلطان «اكبر» يتخذه ميدانا للعبة «الغميضة» او «الغميضا».

لقد سبقني مصنف سابق، ونفى هذه المزاعم، وما قاله ذلك المصنف، يبدو لنا عين الصواب، من أن هذا المكان هو مكان الخزائن، لا مكان لعبة «الغميضة»(٢). ولعل من الأسباب التي تجعلني أقول بذلك ما يلي:

١ ـ ان السلطان «اكبر» لم يكن من الحكام المتلذذين بالحياة، متاعها؛ أو أنه كان من المنصرفين لأمور من هذا النوع، لدرجة اللعب مع النساء في قصره لعبة «الغميضة» اذ من المعروف أنه كان على الدوام منشغلا بالحروب ومباشرتها، اما بنفسه، أو لمتابعتها تحت قيادة هذا الأمير أو ذاك الوزير، أو قادة آخرين لتوسيع رقعة


مصنع سك النقود وقد تهدمت اجزاء كبيرة من حيطانه الخارجية.

دولته، التي تضاعفت في عهده أكثر مما كانت عليه أيام والده وجده مرات عديدة. كما كانت الأمور الادارية، والاشراف المباشر منه على كل صغيرة وكبيرة في سلطنته، تأخذ قسطا كبيرا من وقته؛ اضافة الى ما اشتهر عنه بمجالسة العلماء، والفقهاء والفلكيين ومناقشتهم في شؤون مختلفة، دينية ودنيوية. لذلك، فان هذا النوع من اللعب لا ينطبق على السلطان اكبر، بقدر ما ينطبق على السلاطين المغول المتأخرين، الذين لعبوا، وانشغلوا بلعبهم، فضاعت دولتهم، وذهبت ريحهم، بعد أن عصفت بها الأمواج.

٢ ـ ان السلطان جلال الدين اكبر لم يكن معروفا عنه كثرة النوم، أو كثرة الأكل، بل ان من يطلع على كتب ومصنفات مؤرخي عصره، يجد انه كان قليل النوم؛ ولعل القيلولة كانت تمثل نومته الرئيسية. أما الغذاء، فقد كان يكتفي بوجبة واحدة فقط، خلال الأربع وعشرين ساعة.

٣ ـ ان ذلك المكان، الذي يزعم بأن اكبر كان يلعب فيه «الغميضة» يقع بعيدا عن نسائه، ولا يدخل في دائرة منطقة القصور الخاصة. فليس من المعقول ان يخرج نساء قصره من مساكنهن، ويذهبن الى ذلك المبنى الصغير ليلعبن مع السلطان تلك اللعبة، التي تتطلب مكانا فسيحا، واسعا.

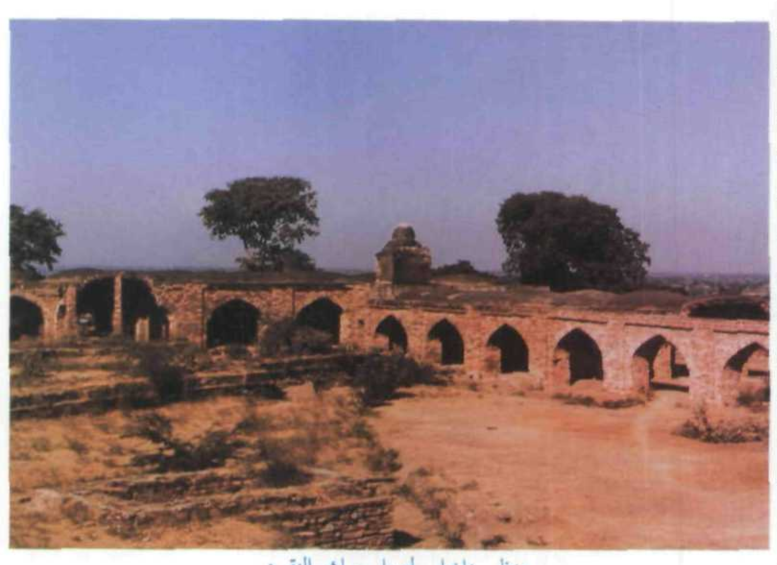
٤ ـ ان المكان مصمم ومشاد ليكون خزينة، بدليل وجود تلك الاقبية، او الاروقة المجوفة من الداخل، ذات الفتحات، لتكون خزائن لاشياء ثمينة.

٥ ـ يقع الى جوار هذا المبنى «المقعد الفلكي» والذي كان يستخدمه السلطان لجلوسه، حتى يشرف على توزيع الاعطيات النقدية لرجاله، وشعبه، من مدنيين

وعسكريين؛ الى جانب كونه مقعدا لمناقشة الأمور الفلكية. فلا بد أن يكون هذا المقعد قريبا من خزينة الدولة، التي يخزن فيها الأموال، لانفاقها في بعض وجوهها. لذلك فهذا المبنى القريب هو أنسب مكان لذلك.

المقعد الفلكي

من جملة المباني، التي شيدت في «مدينة الفتح»، ما عرف بـ «المقعد الفلكي» أو «المصطبة، او«المنصة الفلكية». وهي عبارة عن منصة أو مصطبة صغيرة، لا تتجاوز مساحتها اربعة أمتار مربعة. كان السلطان جلال الدين أكبر يجلس بعض الساعات مع الفلكيين، وعلماء النجوم، وخبراء الأرصاد الجوية، لمناقشة المواضيع المتعلقة بحركة هذا النجم او ذاك. وكان أكبر ينشد العلماء الفلكيين بمختلف نحلهم ودياناتهم، ويستشيرهم عن الوقت المناسب للقيام بهذا العمل او ذاك، وخاصة عند القيام بحملة عسكرية او المسير من هذا المكان الى ذاك. فقد كان شديد الميل الى الدراسات الفلكية؛ وما يقوله علماء هذا الفرع من العلوم يكاد يحتل الأولوية في الآراء المطروحة حول هذه المسألة، أو تلك الرحلة؛ فقد كانت كل تحركات السلطان العسكرية ورحلاته ينظمها له الفلكيون.


منظر داخلي لمعمل سك النقود.

يقع هذا المرصد، او المقعد، الفلكي بجوار مبنى الخزينة، ويشترك معها في نفس الأرضية التي تحتلها. وهو عبارة عن رواق جميل المنظر في حجم كشك مربع الشكل، له فتحات اربع. وربما انه كان محاطا من جميع جهاته بحجارة حلزونية الشكل. ومقام على أربعة اعمدة، تزينها الأقواس الحجرية، والتي تظهر بشكل واضح للزينة أكثر من كونها تتعلق بالنواحي المعمارية، والقواعد الامنية الاساسية لذلك المبنى الصغير في حجمه، والجميل في شكله. أما النقوش التي تزين اقواسه المعمارية، فقد شملت الفنون السائدة في تلك الأراضي، إلا ان الفن الهندوسي، والياني بصفة خاصة، يكاد يغلب عليها بشكل أكثر وضوحا[٣].

مبنى المكاتب

يقع هذا المبنى الى الجنوب من المباني الملكية الخاصة، وبالتحديد، خلف مباني غرف نوم السلطان جلال الدين أكبر، عبر الطريق المزفت، في الوقت الحاضر، الذي يقود الى المسجد الجامع الكبير. وهذا المبنى ذو شكل مستطيل، وهو عبارة عن قاعة واحدة من دور ارضي واحد فقط. وهذه الغرفة مفتوحة من جميع جوانبها، ومحاطة من الخارج بشرفة خارجية؛ ويسند سقفها، المكون من صفائح الحجارة الرملية الحمراء، أعمدة من نفس المادة.

وفي هذا المبنى كان موظفو «اكبر» واداريوه يقومون بتدوين كل شيء عن الدولة، في سجلات خاصة كتدوين واردات الدولة، من مختلف الأقاليم، وكل اقليم على حده. فقد كان لكل ولاية أو اقليم اداري سجلاته الخاصة، يدون فيه كل شيء يتعلق بهذا الاقليم، أو بتلك الولاية. ومن ثم كتابة مصروفات الدولة، في سجلاتها الخاصة، وعمل مقارنة بين مصروفات وواردات كل اقليم، ومن ثم مقارنة واردات الدولة، في مجموعها، بمصروفاتها. إضافة الى ذلك، فإنه يتم تدوين ما يجري من احداث يومية، من أوامر ملكية، أو اصدار قرارت خاصة، في كل امر من امور دولة السلطان جلال الدين أكبر □



١ — E.B. Havell. "Agra and the Taj" New Delhi, 1970P: 109; A.C. Jain, "Agra The City of Taj", Delhi, ?,, P:37; Mahavir Jha, "Agra and Fetehpur Sikra, Delhi, ? P 59.

٢ — Latif, Syad Muhammad, "Agra, Historical and Descriptive" Lahore, 1981, PP: 140 — 141; A.L. Srivastava, "Akbar the Great", Agra, 1973, Vol. III, P: 288.

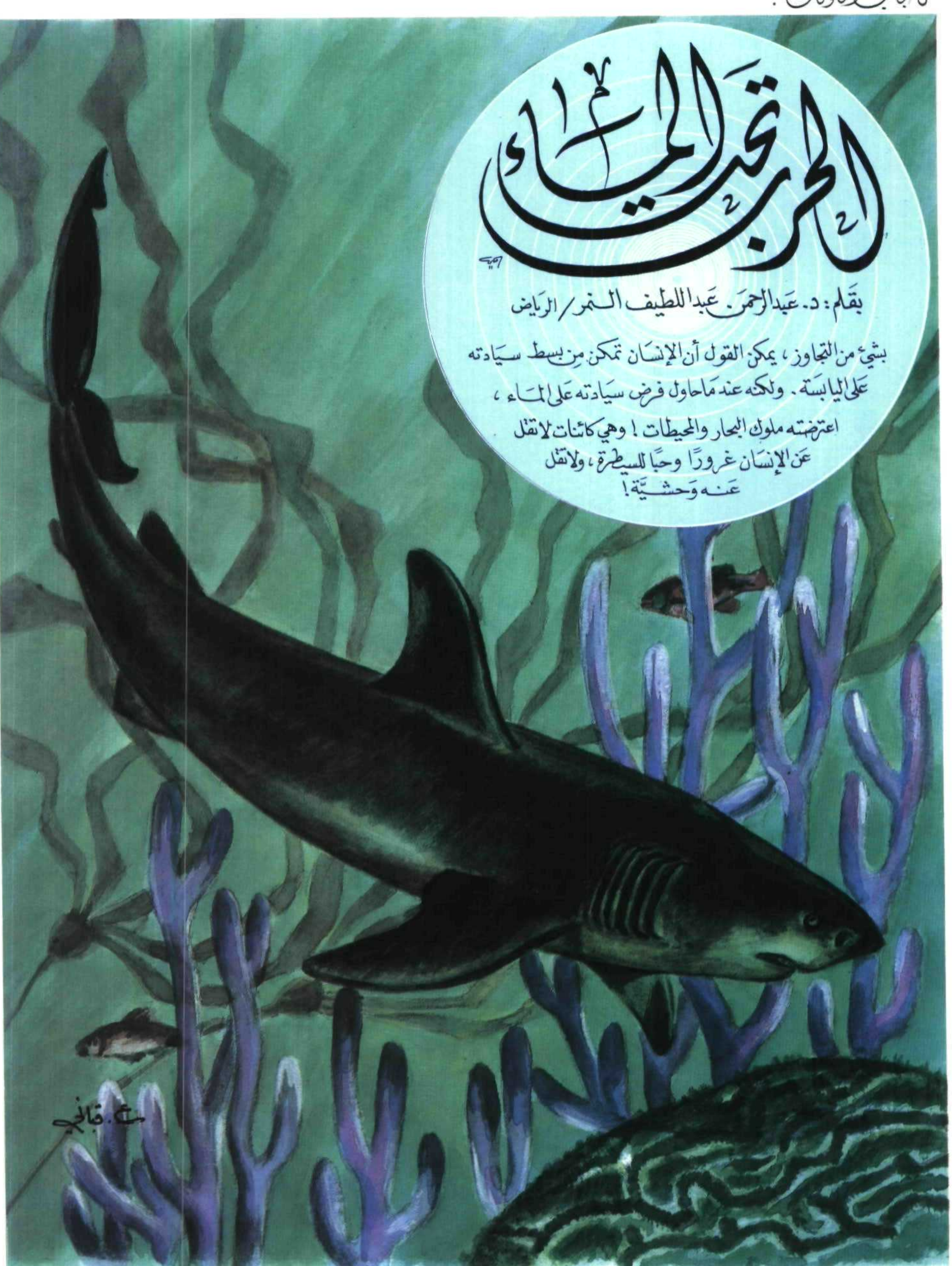
٣ — Mahavir, "Agra & Fatehpur Sikri", P: 63.



الحرب تحت الماء

بقلم : د. عبدالرحمن عبداللطيف النمر / الرياض

بشيء من التجاوز ، يمكن القول أن الإنسان تمكن من بسط سيادته على اليابسة . ولكنه عندما حاول فرض سيادته على الماء ، اعترضته ملوك البحار والمحيطات ! وهي كائنات لا تقل عن الإنسان غرورًا وحبًا للسيطرة ، ولا تقل عنه وحشية !



ومن أكثر ملوك البحار والمحيطات سطوة وجبروتا «القرش». وعندما فكر الانسان في حيلة يغلب بها القرش، وجد شيئا عجبا! فهذا الملك ذو السطوة والجبروت يقف عاجزا بين يدي مخلوق صغير من أحياء الماء! فهل يحتال الانسان بحيلة ذلك الكائن الضعيف؟!

ان ما اكتشفه الانسان وهو يحاول استكشاف البحار والمحيطات، تمهيدا لفرض سيادته عليها، لا يعدو أن يكون فصلا من فصول قصة الحياة في الطبيعة. ولكنه فصل طريف يكشف جانبا من عجائب الخلق والمخلوقات. ولما فيه من طرافة، فاننا ننظر اليه على السطور التالية:

أسماك القرش

«القرش Shark»، نوع من الأسماك الغضروفية التي تعيش في المياه المالحة. ولا يوجد في جسم القرش من العظام سوى العمود الفقري «أو سلسلة الظهر». أما باقي هيكل الجسم فيتكون من مادة «غضروفية – Cartilage». وهذه المادة الغضروفية لها خصائص البلاستيك، بمعنى انها من السهل ان تنثني ولكن من الصعب أن تنكسر! [وفقا لعلم الأنسجة فان الغضروف نوع من «النسيج الضام Connective Tissue». وسمي كذلك لأنه يربط أو «يضم» أنواع الانسجة الأخرى الى بعضها].

ويتكون معظم جسم القرش من عضلات قوية. (العضلات هي ما يطلق عليه اسم «لحم»). وأقوى ما تكون العضلات في منطقة الذيل.

وعلى جانبي الجسم توجد زعنفتان، تقومان بعمل جناحي طائرة، فتمنعان القرش من الهبوط الى قاع الماء! ومن العجب أن القرش يسبح في الماء طول الوقت، اذ لو سكن لغاص الى أعماق الماء! وعادة لا يزور القرش قاع البحر أو المحيط الا زيارات خاطفة. ذلك ان جسمه غير مهيأ لاحتمال ضغط الماء المرتفع، على خلاف الاسماك المفلطحة التي تعيش في قيعان البحار والمحيطات. (يزيد ضغط الماء زيادة طردية من السطح الى القاع).

وعلى الرغم من وجود منخارين (أي فتحتي أنف) في مقدم الرأس، إلا أنه يوجد ما بين خمسة الى سبعة أزواج من الخياشيم على جانبي الرأس. ويبدو أن القرش يستخدم الخياشيم للتنفس مثل باقي الأسماك، بينما يستخدم فتحات الأنف للشم!

وللقرش حاسة شم قوية، تمكنه من الانجذاب نحو قطرة دم واحدة في الماء! وحتى عندما سد باحثو الأحياء المائية أنف القرش، بقيت حاسة الشم على قوتها!

وفضلا عن حاسة الشم القوية، يتميز القرش بقدرة فائقة على استقبال الاصوات الخافتة في الماء، مثل صوت حركة سمكة صغيرة! كما ينفرد القرش بحساسية غير عادية للتيارات الكهربائية الضعيفة، مثل تلك الصادرة عن أجسام الأحياء او عن الآلات المعدنية التي يستخدمها الانسان عند غوصه في الماء!

وأجهزة الحس الفائقة عند القرش، هي التي تجعله مرهوب الجانب عظيم السطوة في البحار والمحيطات! فحتى عندما تختفي منه فريسة بدفن جسمها في رمال البحر او المحيط، بحيث لا يصدر عنها صوت ولا رائحة، فان القرش يستطيع الوصول الى مكانها باستشعار التيار الكهربي الصادر عنها! عجيبة من عجائب الخلق.

الحرب تحت الماء

ويوجد من القرش ألفا (٢٠٠٠) نوع. بعضها يبقى صغيرا في الحجم، وهو الذي يسمى «كلب البحر – Dogfish»، وبعضها يصل الى أحجام تضاهي أحجام الحيتان. وجميع أنواع القرش لها فك هائل مليء بأسنان حادة. وترتيب الاسنان على الفك السفلي في صفين يتقابلان عند القاعدة، أي عند مكان انغمادهما في الفك، ويتباعدان عند الأطراف. وترتيب الاسنان على هذا النحو يمكّن القرش من نهش فريسته نهشا! لذلك فإن نظرة الى أسنان القرش وهو فاغر فاه كفيلة بأن تثير الرعب في قلب أكثر المخلوقات شجاعة!

يسبح القرش في الماء بحركة ثعبانية، أي فيما يشبه حركة الثعبان. وحين يجوع، فانه يلتهم ما يصادفه. وعلى الرغم من أن القرش من آكلات اللحوم (أي أنه حيوان مفترس) فإنه أحيانا يأكل أعشاب البحر! وبعض أنواع القرش شديدة الوحشية، مثل النوع المسمى «القرش الأزرق». وهذا النوع يمكن ان يأكل حتى صغاره!

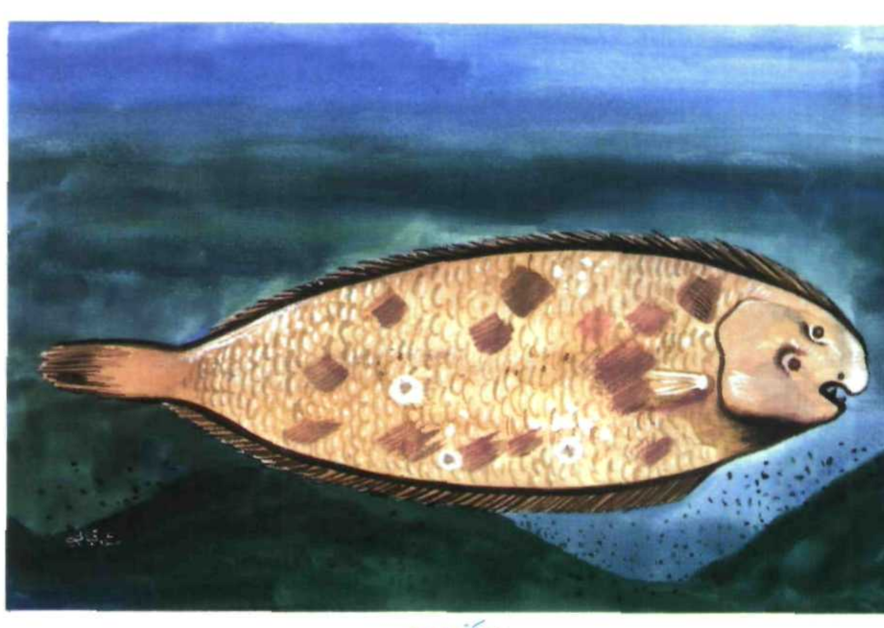
نواميس الطبيعة لا تتغير من اليابسة الى الماء! والاحتيال للحياة موجود بين سائر المخلوقات، ان كان في البحر أو على ظهر اليابسة. والعجيب ان الكائن الحي تعظم حيلته كلما كان ضئيلا في الحجم! وكثيرا ما تتفوق الحيلة على القوة.

هذا بالضبط هو ما انتهى اليه فريق من الباحثين في الاحياء المائية: ففي مياه البحر الأحمر تعيش أصناف عدة من الأسماك. ولكن سمكة معينة جذبت انتباه الباحثين. تلك هي «سمكة موسى – Moses Sole».

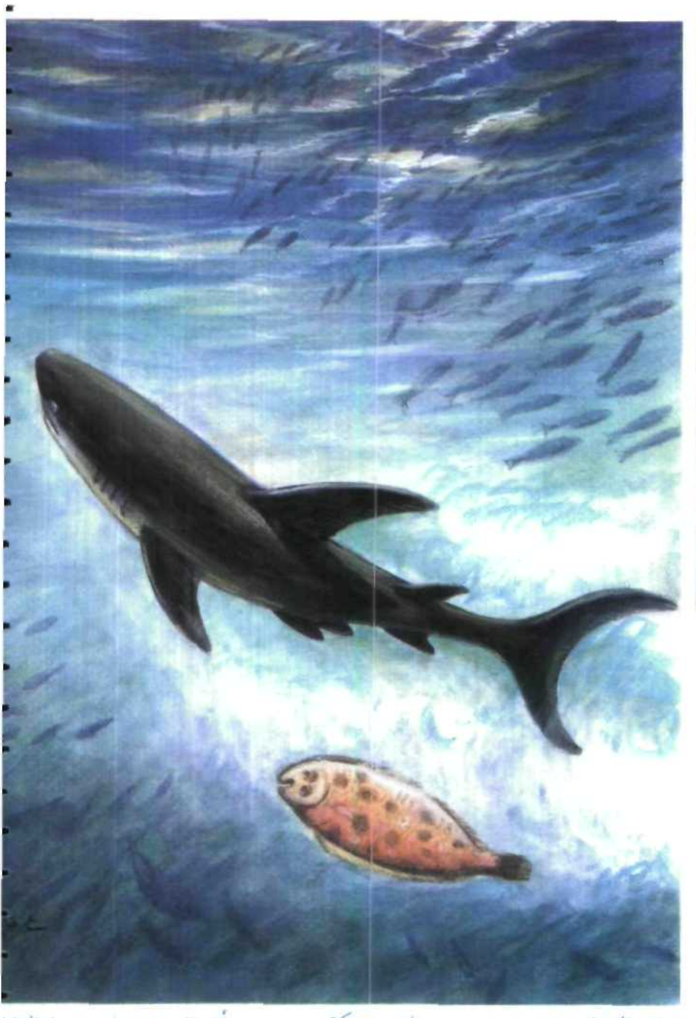
وسمكة موسى تنتمي الى عائلة «العظميات» — أي الأسماك التي لها هيكل عظمي. وهي سمكة مفلطحة تعيش في المياه المالحة، وتكثر بوجه خاص في البحر الاحمر، وفي «بحر موسى» وبحيرة قارون في «مصر». وتندر أسماك موسى في غير المياه المذكورة.



لماذا جذبت سمكة موسى انتباه الباحثين، مع أنها ليست أجمل اسماك البحر الأحمر شكلا ولا ألذها طعما؟! السبب هو أن هذه السمكة الصغيرة المفلطحة تفرز مادة تشبه اللبن



سمكة موسى



سمك القرش وهو يهرب مسرعا من سمكة موسى بعد أن افرزت عليه سمها القاتل

من حيث اللون والقوام، من غدد تحت زعانفها. وهذه المادة تصيب ملك البحر «القرش» بالذعر!

عجيب حقا: ملك عظيم السطوة يفزع من سائل تفرزه سمكة صغيرة! ماذا في هذه المادة يفزع الملك الجبار؟! وكيف استطاع ذلك المخلوق الضئيل «سمكة موسى» ان يجعل جبار البحار عاجزا امامه، بل ويطلب النجاة منه؟! مسألة تستحق البحث.

جمع الباحثون عددا من أسماك موسى، واستخلصوا من غددها تلك المادة البيضاء، وراحوا يجربون تأثيرها على أحياء البحر الأحمر الصغيرة، مثل قنفذ البحر، فاتضح ان لتلك المادة تأثيرا قاتلا. وحتى عندما خففت افرازات سمكة واحدة من اسماك موسى من تلك المادة البيضاء، خمسة آلاف مرة، استمر التأثير القاتل على أحياء البحر الصغيرة! (كان التخفيف بوضع ملليلتر واحد من افرازات سمكة موسى في خمسة ليترات من ماء البحر).

استنتج الباحثون أن افرازات غدد سمكة موسى تحتوي على سم. وكانت الخطوة التالية هي معرفة الطبيعة الكيميائية لذلك السم، وكيفية تأثيره على الأحياء المائية الأخرى. وبعد بحث متطاول، أمكن تحليل افرازات غدد سمكة موسى الى المواد التي تتكون منها. وقد اتضح أن أقواها تأثيرا نوع من البروتين اطلق عليه اسم «بارداكسين – Pardaxin» (نسبة الى الاسم اللاتيني لسمكة موسى، وهو: «Pardachirus Marmoratus»).

وقد اعتقد الباحثون في بادىء الأمر أن السم يؤثر على الأحياء المائية من خلال التصاقه بأغشية الخياشيم، مما يمنع الخياشيم من أداء دورها في التنفس! بيد أن تجارب أخرى أجريت على السم الذي تفرزه سمكة موسى، أظهرت ان السم يؤثر مباشرة على الجهاز الهضمي. وقد امكن الوصول الى هذه النتيجة عند تجريب السم على الضفادع.

والآن، جاء دور ملك البحر: كيف يؤثر السم عليه؟! عندما يقترب ملك البحر «القرش» من سمكة موسى ليقتنصها، تفرز السمكة في الحال سمها من غدة تحت الزعنفة الجانبية، ومن غدة ثانية في مؤخرة الجسم بجوار فتحة الشرج. والثابت من التجارب ان السم سريع المفعول (أو بالدقة فوري) ويؤدي مفعوله حتى عند تركيز منخفض، كما ظهر في تجربة تخفيف السم. ولأن جميع الأسماك — بما فيها القرش — تبتلع الماء كجزء من عملية التنفس، فان سم سمكة موسى سيدخل لا محالة الى جوف القرش. ومتى وصل السم الى الجوف، فان تيار الدم يحمله الى المخ. وفي المخ، تؤدي المادة الفعالة في السم — وهي البروتين «باراكسين» — الى اطلاق وسيط عصبي. هذا الوسيط العصبي (أو بالتعبير العلمي «ناقل السيال العصبي – Neurotransmitter») يكون مخزونا في الخلايا العصبية، ومن بينها خلايا المخ. (المخ هو أكبر تجمع للخلايا العصبية). والوسيط العصبي المقصود هنا

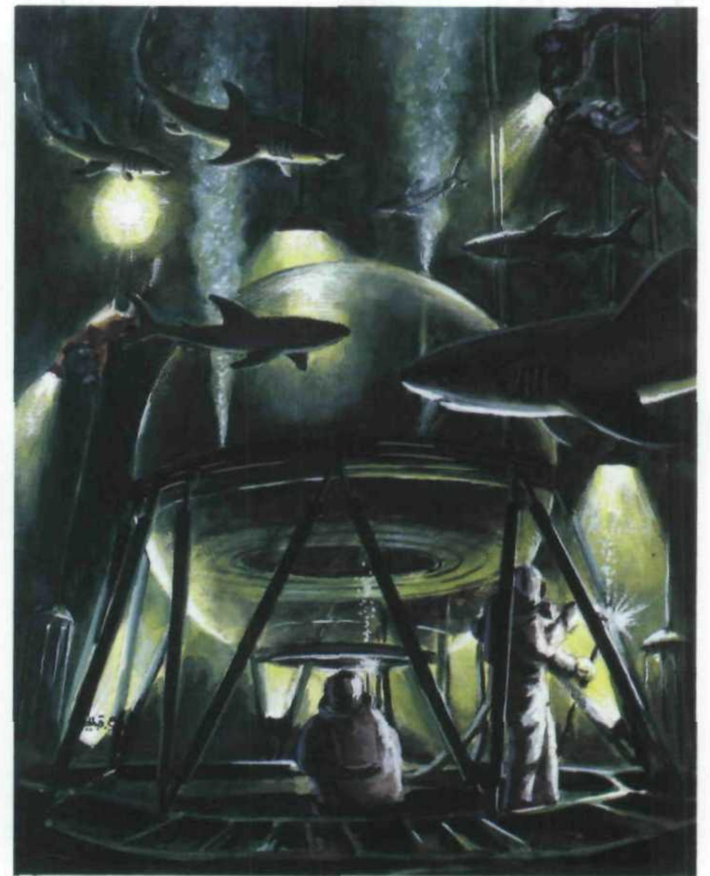
هو المسمى «اسيتيل كولين – Acetylcholine». وعندما ينطلق هذا الوسيط العصبي بكثرة من الخلايا العصبية فإنه يؤدي الى اصابة العضلات بالتشنج!

هذا هو سبب فزع ملك البحار «القرش» من ذلك المخلوق الضئيل «سمكة موسى». وهذا هو السبب في أنه يطلب النجاة منها. فجرعة صغيرة من سم هذه السمكة الضئيلة كفيلة بأن تصيب ملك البحار بالتشنج! وحتى عضلات فك ذلك الجبار يصيبها التشنج (انقباض العضلات وتقلصها لا اراديا) فلا يستطيع ابتلاع سمكة صغيرة! سبحان الله العظيم.

حيلة الضعيف

ليس في الطبيعة قوي إلا وهناك من هو أقوى منه. هكذا تخبرنا الحياة في كل فصل من فصولها. وقد رأينا في العرض السابق كيف تفوقت حيلة الضعيف على جبروت القوي! فهل يحتال الانسان بحيلة الضعيف؟!

لا يخفى أن أسماك القرش تناوىء الانسان وتقف له بالمرصاد، حيثما سوَّلت له نفسه الغوص الى أعماق البحر. فضلا عن أنها تهاجم المصطافين والمستجمين الذين يرتادون شواطىء البحار والمحيطات. لذا فإن تفكير الانسان في حيلة للتغلب على القرش له ما يبرره.



تصنع اقفاص حديدية تحت الماء للابحاث العلمية تكون محمية من أسماك القرش.

بالنسبة للغوص الى أعماق البحار والمحيطات، أمكن تفادي هجمات القرش بصناعة الأقفاص الحديدية، آلة يبقى الغواص بداخلها أثناء وجوده تحت الماء. ويمكن خفض القفص الحديدي الى الماء، أو رفعه منه، بواسطة رافعات خاصة على متن السفن والمراكب المخصصة للأبحاث المائية.

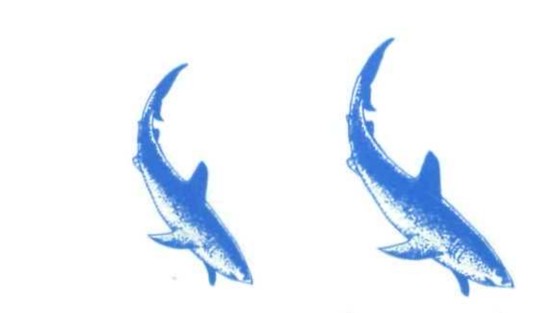
والطريف أن الأقفاص المعدنية تقي الغواص من هجوم القرش بطريقتين: الأولى ان القرش لن يستطيع تحطيم القضبان الحديدية التي يصنع منها القفص، خصوصا وأن المسافات بين القضبان مصممة بحيث لا يستطيع القرش ضم فكه عليها. اما الطريقة الثانية فهي غير مباشرة، وترتبط بقدرة القرش على استشعار التيارات الكهربية الضعيفة. فعندما يستقبل القرش التيارات الصادرة عن قضبان القفص، مضافة الى التيارات الصادرة عن الغواص وأجهزته، فإنه يفسر تلك الشحنة الكهربية بأنها صادرة عن مخلوق هائل الحجم! وهذا هو تعليل فرار القرش بعيدا عن أقفاص الغواصين المعدنية هكذا يعتقد الباحثون في سلوك الأحياء المائية!

بقيت المشكلة الثانية، وهي تأمين الشواطىء من هجمات القرش المباغتة. ولتحقيق ذلك، فكر الانسان فيما يسمى «طارد القرش»، وهي مادة كيميائية تشبه الغازات المسيلة للدموع التي تستخدم لتفريق المتظاهرين، على أن مصانع العقاقير لم تنجح في انتاج مادة كيميائية تفيد في طرد القرش بعيدا عن الشواطىء.

من هنا، فإن اكتشاف تأثير سم سمكة موسى على القرش يعتبر غنيمة للانسان من ناحيتين: فمن ناحية، أظهر الاكتشاف حيلة من حيل الحياة تفيد في معرفة عجائب المخلوقات، فوق ما فيها من حكمة وموعظة! ومن ناحية ثانية، فإن سم سمكة موسى يمهد الطريق للانسان لتحقيق ما يريد، وهو انتاج مادة طاردة للقرش.

من الصعب عمليا استخراج اسماك موسى من البحر لاستخراج السم من غددها. وإذن يبقى حل واحد: وهو أن يحاول الانسان تركيب وانتاج ذات السم في المعمل (المختبر). وهذا ما يجري في الوقت الحالي.

على أي حال، فان لجوء الانسان الى حيلة الضعيف لا يؤخذ دليلا على ضعف الانسان، بل يدل ذلك على ذكاء الانسان. فقد تعلم الدرس، وهو ان«الحيلة تغلب القوة»! □





لمحة تاريخية عن





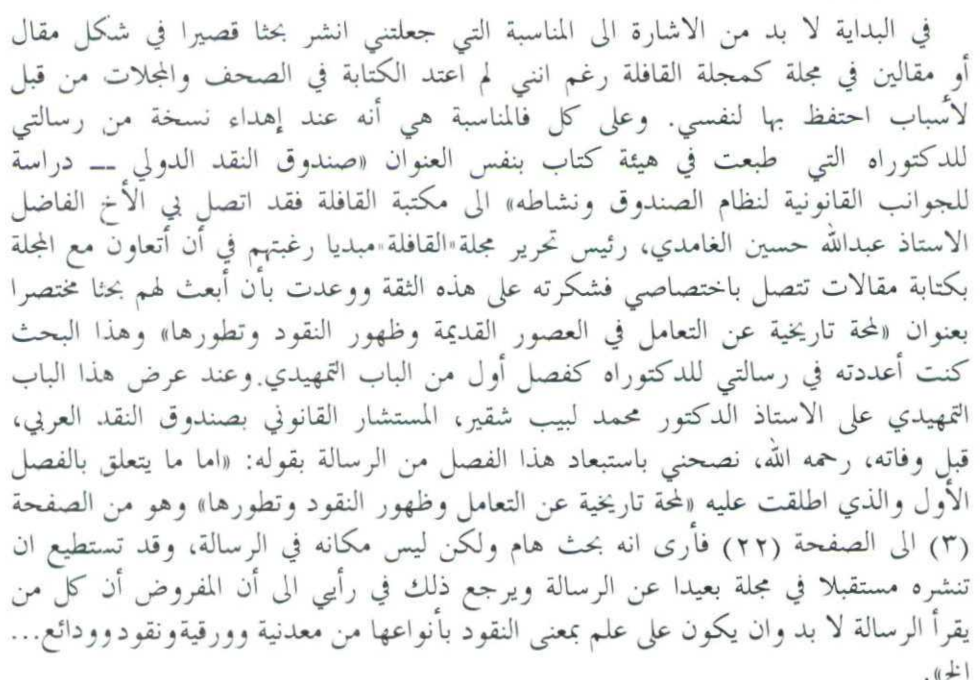
النقود ظهورها وتطورها (١)

بقلم: د. ابراهيم بن عيسى بن علي العيسى/الدمام





تمهيد



في البداية لا بد من الاشارة الى المناسبة التي جعلتني انشر بحثا قصيرا في شكل مقال أو مقالين في مجلة كمجلة القافلة رغم انني لم اعتد الكتابة في الصحف والمجلات من قبل لأسباب احتفظ بها لنفسي. وعلى كل فالمناسبة هي أنه عند إهداء نسخة من رسالتي للدكتوراه التي طبعت في هيئة كتاب بنفس العنوان «صندوق النقد الدولي — دراسة للجوانب القانونية لنظام الصندوق ونشاطه» الى مكتبة القافلة فقد اتصل بي الأخ الفاضل الاستاذ عبدالله حسين الغامدي، رئيس تحرير مجلة «القافلة» مبديا رغبتهم في أن أتعاون مع المجلة بكتابة مقالات تتصل باختصاصي فشكرته على هذه الثقة ووعدت بأن أبعث لهم بحثا مختصرا بعنوان «لمحة تاريخية عن التعامل في العصور القديمة وظهور النقود وتطورها» وهذا البحث كنت أعددته في رسالتي للدكتوراه كفصل أول من الباب التمهيدي. وعند عرض هذا الباب التمهيدي على الاستاذ الدكتور محمد لبيب شقير، المستشار القانوني بصندوق النقد العربي، قبل وفاته، رحمه الله، نصحني باستبعاد هذا الفصل من الرسالة بقوله: «اما ما يتعلق بالفصل الأول والذي اطلقت عليه «لمحة تاريخية عن التعامل وظهور النقود وتطورها» وهو من الصفحة (٣) الى الصفحة (٢٢) فأرى انه بحث هام ولكن ليس مكانه في الرسالة، وقد تستطيع ان تنشره مستقبلا في مجلة بعيدا عن الرسالة ويرجع ذلك في رأيي الى أن المفروض أن كل من يقرأ الرسالة لا بد وان يكون على علم بمعنى النقود بأنواعها من معدنية وورقية ونقود وودائع... الخ».

وأخذا بنصح الأستاذ الدكتور محمد لبيب شقير، رحمه الله، واستجابة لرغبة مجلة «القافلة» يسعدني أن أبعث هذا البحث القصير لنشره بالصورة التي يرونها مناسبة وذلك لتعم الفائدة خاصة وانه يعطي القارىء تصورا عن تطور التعامل منذ العصور القديمة وحتى ظهور النقود الورقية ذلك لأن هناك الكثير من الناس ممن لم يعرفوا التعامل بالنقود المعدنية يوم ان كان سائدا حيث فتحوا عيونهم واذا التعامل يتم بالنقود الورقية وكأنها هي البداية وان التعامل بالقطع النقدية هو الاستثناء كما هو حاصل في الوقت الراهن.

بعد هذا التمهيد الذي لا بد منه ننتقل الى الحديث عن الموضوع فيما يلي:

مقدمة

الانسان اجتماعي بطبيعته[1] منذ أن خلق الله الجنس البشري، وبصرف النظر عن مراحل التطور التي مر بها الانسان[2] فهو في حاجة الى غيره من بني جنسه ليكمل بعضهم البعض في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ومما يجدر التنويه به أن التعامل في العصور القديمة جدا غير موجود يوم ان كانت الوحدة تتكون من العائلة «الاسرة»[3] لأن أفراد العائلة يعملون في حقل واحد بالزراعة وتربية الماشية، وبالتالي يأكلون ويلبسون مما ينتجونه حيث توفر لهم الاكتفاء الذاتي ـــ Autarchy نظرا لبساطة الحياة، ولكن بعد تكون القبيلة من عدد من العشائر كبر المجتمع ونشأت القرية والمدينة وبدأ الاستقرار يكون بدلا عن كثرة الترحال. وكان لا بد من التوسع في التعامل بين مختلف التجمعات البشرية، والاتجاه الى التخصص في العمل، وبالتالي في الانتاج. غير أن التعامل في هذه الحقبة من الزمن كان محدودا، وبدائيا، لأنه يتم بطريق المقايضة وهي مبادلة سلعة بسلعة. ثم ما لبث الوضع ان تطور بتطور المجتمع فظهرت وسائل أخرى تستجيب لمتطلبات الحاجة. وهذه الوسائل يمكن عرضها بايجاز على النحو التالي:

أولا: النظرة الى أسلوب المقايضة في التعامل لدى المجتمعات القديمة.
ثانيا: عرض وسائل التعامل بالنقود السلعية وظهور العملة المعدنية.
ثالثا: الاشارة الى وسيلة اكثر تطورا وهي النقود الورقية وعنصر الائتمان فيها.
رابعا: الحديث عن نقود الودائع «او النقود الكتابية».
خامسا: نبذة عن نشأة المصارف وتطورها.

اولا: المقايضة:

يقصد بالمقايضة مبادلة سلعة بسلعة. وهذا التعامل كان سائدا في المجتمعات البدائية القديمة بعد الانتقال من الاقتصاد المغلق الضيق وظهور الملكية الفردية الخاصة. وهذا بطبيعة الحال نتيجة التحول من المجتمعات الصغيرة الى المجتمعات الكبيرة ـــ نسبيا ـــ حيث اتسع مجال التعامل التجاري[4] فتحقق الاتصال بين القرية والمدينة.

ولقد كانت السلعة في بادىء الأمر ذات قيمة استعمالية فقط بمعنى أنها تنتج للاستهلاك من قبل المنتج نفسه وأفراد عائلته لكن بعد التوسع الذي أشرت اليه آنفا ظهرت القيمة التبادلية



(١) هذا الرأي لأرسطو ولكن «هوبس ـــ Hobbs» لا يوافقه الرأي حيث قال بأن الانسان ليس اجتماعيا كما زعم ارسطو بل انه اناني محب لنفسه لا يعمل الا مدفوعا بمصلحته الخاصة فكان قبل العيش في جماعة في حالة من الفوضى وسيطرة الأقوياء ولذا يرى ان المجتمع الدولي مجتمعا فوضويا. المرجع الاستاذ الدكتور ثروت بدوي ـــ أصول الفكر السياسي والنظريات والمذاهب السياسية الكبرى دار النهضة العربية (القاهرة) ط/١٩٧٢م ص/١٤٥.

(٢) الدكتور محمد السيد غلاب ـــ تطور الجنس البشري ـــ الطبعة الثالثة عام ١٩٦٣م مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ص/٧٤.

(٣) لعل من المفيد الاشارة الى أن أساس المجتمعات البشرية في تلك العصور البدائية الموغلة في القدم تعوزه الدقة، ومن ذلك الاختلاف حول الوضع الاجتماعي، فهناك من يرى أن الوحدة الاجتماعية الأولى هي العائلة التي يرتبط أفرادها بصلة الدم وعاطفة القربى في حين يرى آخرون ان القبيلة هي أول خلية اجتماعية، وتتكون من مجموعة أفراد جمعتهم الصدفة، أو الضرورة للتعاون معا دون ان توجد بينهم رابطة قربى، بل ان هناك نظريات أخرى توضح مدى التباين في الروايات، ولعل الأقرب الى الصواب هو ما ذهب اليه أصحاب النظرية العائلية اذ الراجح لدي أن الوحدة الاجتماعية الأولى هي العائلة (او الأسرة) ومنها تكونت العشيرة من عدد من الأسر «او العوائل» ثم تلى ذلك نشوء القبيلة من عدد من العشائر. يراجع في ذلك الاستاذ الدكتور صوفي ابو طالب «الوجيز في القانون الروماني» طبعة عام ١٣٨٥هـ ـــ ١٩٦٥م.دار النهضة العربية (القاهرة) ص/٣٠. كذلك الاستاذ الدكتور زهدي يكن «تاريخ القانون» الطبعة الأولى عام ١٩٦٦م دار النهضة العربية (بيروت) ص/٣٥ـــ٥٢.

راجع أيضا: جان بابي «القوانين الاساسية للاقتصاد الرأسمالي» ترجمة لجنة من شريف حتاته ومحمد خليل قاسم وسعد كامل وحليم طوسون ط/١ عام ١٩٥٧ دار الفكر (القاهرة) ص/١٧ـــ١٨. والاستاذ احمد أمين «فجر الاسلام» ط/١٠/١٩٦٩م دار الكتاب العربي (بيروت) ص/٤.

(٤) مبادىء الاقتصاد السياسي «النقود والبنوك» الاستاذ الدكتور رفعت المحجوب والاستاذ الدكتور عاطف صدقي طبعة عام ١٩٦٧ دار النهضة العربية (بيروت) ص/٧ـــ٨.

للسلعة يوم أن شعر الانسان بحاجة الى سلع اخرى مما ينتجه غيره من أفراد المجتمع. ثم هو من جهة أخرى ينتج من السلع التي تخصص فيها أكثر من حاجته هو وأفراد عائلته حتى يتسنى له الحصول على سلع أخرى بالتقايض مع الآخرين. ولنذكر مثالا توضيحيا لذلك: لو أن شخصا ينتج الثياب فإنه سوف يسعى للحصول على سلع أخرى هو في حاجة لها ولتكن الماشية أو القمح. فهنا يتم التقايض «التبادل» بين السلعتين على أساس ان المتبايعين افترضا ــ ضمنا ــ فيما بينهما أن هناك تعادلا بين السلعتين، كمبادلة ثوب برأسين من الماعز[٥] أو العكس. غير أن هذا الأسلوب من التعامل، كان لا بد وأن يتطور لأنه لم يعد كافيا للاستجابة لحاجات المجتمع الكبير ــ نسبيا ــ الذي أخذ يتوسع في معاملاته التجارية مما أوجد بعض الصعوبات التي تعترض هذا التعامل نوجزها فيما يلي:

* قد لا تكون السلعتان محل المقايضة متساويتين في القيمة. وفي الوقت نفسه يتعذر تقسيم السلعة الأكثر قيمة. وهذا بدوره يمنع حصول عملية المقايضة لعدم القابلية للتجزئة.
* عدم توافر رغبات المتقايضين، اذ ان حصول عملية المقايضة، تقتضي ان يكون كل من الشخصين، لديه الرغبة في اقتناء السلعة التي لدى الطرف الآخر، وهذا لا يتيسر إلا بعد جهد كبير، ووقت طويل.
* ان تعدد السلع، وحصول اختلاف بين أنواع السلعة الواحدة، جعل من الصعب امكانية تحديد القيم النسبية للسلع. وهذا يعتبر شرطا اساسيا لاتمام عملية المقايضة[٦].

وأمام هذه الصعوبات إتجه التفكير الى البحث عن بديل لهذا الأسلوب وكان ذلك بشكل تدريجي، باستعمال النقود السلعية كمرحلة ثانية من تطور وسائل التعامل.



ثانيا: النقود السلعية وظهور العملة المعدنية:

أمام الصعوبات التي ذكرناها سابقا، ونظرا للتوسع في المبادلات التجارية، كان لا بد من البحث عن وسائل مناسبة تسهل عملية المبادلات بين الأفراد. ولقد اهتدى الفكر الانساني في تلك الحقبة من الزمن الى النقود السلعية ــ The commodity Money، وكانت في باديء الأمر، تتمثل في البحث عن سلعة تكون بمثابة المقياس المشترك لتحديد قيم السلع محل التبادل من تلك التي تكون لها قبول عام في المجتمع. ولقد اختلفت المجتمعات في تحديد مثل هذه السلع فمنهم من حدد الماشية وهم سكان البحر المتوسط. أما في الصين فحددت السكاكين. وفي التبت اختير الشاي وغير ذلك. وهكذا تطور استعمال السلع المختارة لكي تقوم بوظيفتين: الأولى، قياس القيم، والثانية وسيلة، لاتمام عملية المبادلة. ولنضرب مثالا بالماشية التي اتخذتها بعض الجماعات، فلو أن شخصا اراد مبادلة ثوب بقمح فإن عليه أولا أن يشتري الماشية بثوب ثم يشتري القمح بالماشية. وهذا بطبيعة الحال بعد تحديد قيمة كل منهما بالنسبة للماشية.

وكما ذكرت فإن السلعة التي تختار لتقوم بدور النقد السلعي يجب أن يتوفر فيها القبول العام والواسع من حيث المكان والزمان اللذين استخدما فيهما، وان تكون سهلة الحفظ والاقتناء لمدة أطول وتتميز بالثبات النسبي في القيمة[٧]. لكن هذا الأسلوب من التعامل، لم تتوفر فيه الدقة في القياس، وكذلك لم يتجاوب مع التوسع الهائل في المعاملات التي امتد نطاقها الى المدن المجاورة، لصعوبة المواصلات والنقل. وأمام هذا ونظرا للتقدم المطرد في الانتاج، كان لزاما أن تطور وسائل التعامل من السلع الصالحة لأن تكون نقودا، فوقع الاختيار على المعادن العادية كالنحاس والنيكل والحديد وغيرها، ثم بعد ذلك اختيرت المعادن الثمينة

---

(٥) القوانين الاساسية للاقتصاد الرأسمالي ص/٢٧ــ٣٠، ٨٧، ٩٥ المرجع السابق.

(٦) مبادىء الاقتصاد السياسي «النقود والبنوك» د. رفعت المحجوب، د. عاطف صدقي ص/٨ وكذلك «النقود والبنوك والعلاقات الاقتصادية الدولية» د. صبحي تادرس قريضة د. مدحت محمد العقاد ط/ سنة ١٩٨٣م دار النهضة العربية (بيروت) ص/١٣ــ١٦.

(٧) مبادىء الاقتصاد السياسي «النقود والبنوك» د. رفعت المحجوب، د. عاطف صدقي ص/٩ــ١١ كذلك د. محمد زكي السير «مقدمة الاقتصاد الدولية واقتصاديات النقود» طبعة دار النهضة العربية (القاهرة) سنة ١٩٨٣ ص/٢٢ــ٢٧.

كالذهب والفضة، لما يتمتعان به من خواص طبيعية، من حيث سهولة النقل، وامكانية التجزئة الى قطع صغيرة من السبائك — Bullion يسهل تجميعها، وعدم قابليتها للتلف أو التآكل بسرعة، يضاف الى ذلك ندرتها التي أعطتها قيمة تفوق قيمة المعادن الأخرى. ولا شك أن هذه المزايا جعلت منها عملة سلعية متطورة، وأطلق عليها النقود المعدنية السلعية — The Commodity Mineral Money. وبالبحث والاستقصاء لمعرفة بداية استعمال النقود المعدنية، لم أقف على تاريخ محدد يمكن الجزم بأنه هو بداية عهد استعمال هذه النقود. بيد أنه ذكر أن الرومان عرفوا النقود المعدنية منذ عام ٤٥٤ ق.م. والتي هي عبارة عن سبائك البرونز، غير محددة الوزن والقيمة. ولكن عند إجراء التصرفات القانونية يحدد ذلك، بحضور شخص سمي حامل الميزان — Libri-Pens ثم بعد ذلك تولت الدولة ضرب نقود منذ عام ٣٣٥ ق.م، وعندما دخلت روما في علاقات تجارية دولية مع جيرانها ظهرت العملة الفضية عام ٢٦٩ — ٢٦٨ ق.م. سكت الدولة الرومانية عملة ذهبية تعرف باسم «Aurei»[٨].

وهذا يقارب في مفهومه ما أشير اليه في بعض كتب الاقتصاد السياسي من أن النقود في بادىء الأمر كانت عبارة عن سبائك من الذهب او الفضة مختلفة الوزن والعيار. وهذا بطبيعة الحال يقتضي القيام باجراءات قانونية لاتمام عملية التصرف، وذلك بوزنها والتأكد من عيارها. ومثل هذا يحتاج الى بعض الوقت في كل مرة يتم فيها التعامل، الأمر الذي جعل السلطة تضع علامات واضحة على السبائك تحدد وزنها وعيارها. وقد سميت هذه النقود بالنقود الموزونة[٩]، ثم أعقب هذا ضرب النقود على هيئة مسكوكات. ولا شك ان هناك حضارات قديمة بادت، وهي تعرف التعامل بالنقود في المبادلات التجارية. فالقبائل الآشورية خرجت من شبه الجزيرة العربية عام ٣٥٠٠ ق.م. واتجهت الى الشمال في منطقة يحدها شرقا نهر دجلة، ومن الغرب الصحراء واختلطوا بأهالي المنطقة الاصليين من السومريين وأخذوا عنهم الكثير من الحضارة، ويذكر أنهم استفادوا من موقعهم الجغرافي الواقع على طريق القوافل التجارية مما زاد في مواردهم المالية، ولم يأت عام ٧٠٠ ق.م. إلا وقد سيطروا على منطقة الهلال الخصيب.[١٠]

من هذا العرض الموجز يتضح ان استعمال النقود السلعية والمعدنية كان منذ العصور القديمة. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿**قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا**﴾[١١]. فمن هذه الآية الكريمة يستفاد أن عملة قوم اصحاب الكهف هي الفضة وهذا دليل قاطع على قدم النقود المعدنية حسبما سبق ايضاحه. ولا شك أن الذهب والفضة احتلا مكان الصدارة في الأخذ بهما كنقود سواء على هيئة سبائك أو مسكوكات وهذه تتساوى قيمتها كنقد مع قيمتها كسلعة ويطلق عليها النقود المعدنية الكاملة — Full Bodied Money. ثم يأتي بعد ذلك في المرتبة الثانية نقود مسكوكة من معادن أخرى كالحديد والنيكل والنحاس.. الخ وتسمى بالنقود المساعدة — Token Money وهذه قيمتها كنقود تفوق قيمتها كمعدن[١٢].

ومن يرجع الى كتب التاريخ يجدها زاخرة بذكر هذه النقود، وتطورها، حيث اقتبس الانباط من الاغريق والرومان سك النقود، فعرفت نقود تعود الى عصر ملوك الانباط من (٨٧—٣٠)

---

(٨) د. صوفي ابو طالب «الوجيز في القانون الروماني» ص/٣١، ٣٢

(٩) مبادىء الاقتصاد السياسي «النقود والبنوك» د. رفعت المحجوب، د. عاطف صدقي المرجع السابق ص/١١، ١٢، ٣٥—٤٠.

(١٠) د. ابراهيم الطحاوي «الاقتصاد الاسلامي — مذهبا ونظاما — دراسة مقارنة». ص/٦١ ج/١ ط/ عام ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية (القاهرة) كذلك جيمس هنري برستد «انتصار الحضارة — تاريخ الشرق القديم» ترجمة د. احمد فخري ص/٢١٤—٢٢٩.

(١١) سورة الكهف الآية (١٩).

(١٢) «النقود والبنوك والعلاقات الاقتصادية الدولية» د. صبحي تادرس قريضه د. مدحت محمد العقاد ص/٢٥، ٢٦.

ق.م.، وكذلك نقود تعود الى عصر ملكة تدمر (الزباء أو زينب) وتعرف (بنقد زنوبيا) عام (٢٦٧ـ٢٧٢)م.

وقد وصل الدينار الذهبي البيزنطي والدرهم الفضي الفارسي الى سكان شبه الجزيرة العربية فأخذوا يتعاملون بهما فترة طويلة قبل ظهور الاسلام، وبعده منذ عهد الرسول ﷺ وحتى عهد معاوية بن أبي سفيان، وان كان يروى ان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ضرب الدرهم «على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها» وزاد في بعضها «الحمدلله» والبعض الآخر «محمد رسول الله»، وفي بعضها «لا إله إلا الله وحده»[١٣] وذلك سنة (١٨هـ) الموافق (٦٣٩)م ومثل هذه الرواية تذكر ان الخلفاء من بعده أبقوا النقود في شكلها الرومي والفارسي بنقوشها مع إضافة العبارات الاسلامية. ولذا يرتبط استقلال النقود الاسلامية عن الأجنبية بعهد عبدالملك بن مروان (٦٥ــ٨٦هـ)، (٦٨٥ــ٧٠٥م)[١٤].

هذه لمحة تاريخية عن النقد المعدني تظهر مدى التقدم في النظام النقدي اذ كانت النقود تسك من قبل الدولة أو باشرافها، وذلك حفاظا على الوضع الاقتصادي من الفوضى، وتأكيدا على استقلاليته وانتظامه بحيث لا تمتد اليه الأيدي بالتزييف أو الغش. وفي هذا يقول ابن خلدون: ان من مهام السلطان (الحاكم) «النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش...» وفي موضع آخر يصف السكة بأنها «الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس...»[١٥].



ويروى عن الامام احمد بن حنبل قوله «لا يصلح ضرب الدراهم الا في دار الضرب بإذن السلطان لأن الناس ان رخص لهم ركبوا العظائم»[١٦]. من هذا يتبين أن العلماء والمفكرين والفلاسفة من العرب والمسلمين كان لهم الدور البارز في رسم السياسة النقدية كغيرهم من علماء الأمم الأخرى. ونختم القول بأن ظهور النقود المعدنية واستعمالها، كان له الأثر الفعال في ازدهار الحركة التجارية وتطورها بين الأمم في تلك الحقبة من الزمن، اذ كانت الاساطيل البحرية تجوب البحار في مهام تجارية، فانتعشت العلاقات التجارية والاقتصادية على نطاق واسع في مختلف البلاد، ولم تكن هناك من القيود والحواجز الجمركية بمثل ما هو حاصل بعد الثورة الصناعية وما شاع من هيمنة الدول ذات الاقتصاد القوي على الدول ذات الاقتصاد الضعيف، ولا شك ان هذا التطور لا بد أن يولد الحاجة الى مزيد من تطوير وسائل التعامل بشكل يكفل سرعة تسوية المعاملات بيسر وسهولة، ويؤدي الى تلافي مصاعب نقل النقود المعدنية، وما قد يعترض ذلك من مخاطر، عبر الطرق البحرية والبرية، فكان هذا التطور يتمثل في ظهورالنقود الورقية والقبول بها كأداة للوفاء بعد أن مرت بمراحل من التطور الائتماني حتى أصبحت نقودا إلزامية بقوة القانون وهذا ما سوف نتكلم عنه بايجاز في المقالة القادمة بإذن الله□

---

(١٣) كانت مصر فيما قبل الفتح الاسلامي عام ٢٠هـ ــ ٦٤١م تأخذ بقاعدة الذهب حيث تتعامل بالدينار البيزنطي وهو من الذهب يراجع الاستاذ حسن محمود الشافعي «النقود بين القديم والحديث»، دار المعارف (القاهرة) ص/١١.

(١٤) د. سيده اسماعيل كاشف «محاضرة عن النقود العربية في العصر الاسلامي»، جامعة الكويت الموسم الثقافي العام ٦٧ــ١٩٦٨م ص/٢٣٢ ــ ٢٣٨ كذلك د. احمد شلبي «السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي» ط/٣ عام ١٩٧٤م مكتبة النهضة العربية (القاهرة) ص/٢٩٠ــ٢٩٣.

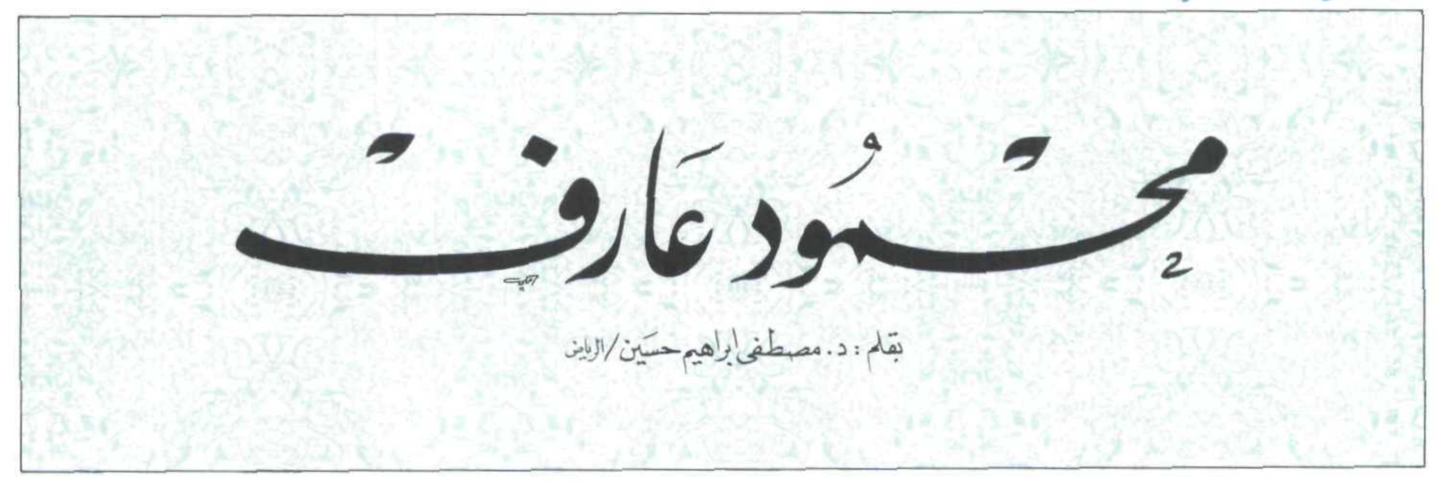
(١٥) مقدمة ابن خلدون ط/ (دار العودة ــ بيروت) ص/١٨٦، ٢٠٦.

(١٦) ابو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي «الاحكام السلطانية» ص/١٨١ ط/٢ سنة ١٩٦٦م شركة مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر.









هو محمود عبدالخير عارف. ولد بمدينة جُدَّة عام ١٣٢٧ للهجرة، والتحق — في طفولته — بأحد كتاتيب جُدَّة المشهورة، وهو كُتَّاب «العظيم». وكان هذا الكتَّاب يقع في «قصبة الهنود» بمحلة الشام. وفي كتَّاب «العظيم» تلقى الأديب تعليمه الأوَّلي، ثم أتمَّه ليلتحق بمدرسة «الفلاح» بجُدَّة، وهي واحدة من تلك المدارس الوطنية، التي أسسها — على نفقته الخاصة — المصلح الوطني الراحل محمد علي زينل رضا عام ١٣٢٠هـ، لتكون أول صرح حقيقي في بناء التعليم والحركة الثقافية في تاريخ المملكة العربية السعودية.

وفي «الفلاح» تتلمذ عارف على جلة من رواد «المعلمين الأدباء» منهم: محمد حسن عواد، وحسين قطر، ومصطفى نيلاوي، ومحمد محمد المرزوقي، وحسن ابو الحمايل، وعبدالوهاب نشار، ويوسف عوض. وفي الصدارة من هؤلاء جميعا الأديب الراحل «محمد حسن عواد»، أبعد رجالات «الفلاح» أثرا في كل من تلقى عليه، أو صحبه من الطلاب وشداة الأدب، وأعمقهم حضورا في تاريخ الأدب السعودي.

أما زملاء «عارف» بالفلاح، فمنهم: احمد قنديل، ومحمد باجسير، وسالم أشرم، وعباس حلواني، وعمر عبدربه، وحسن المنصوري، ومحمد علي باحيدرة، وكان محمد علي باحيدرة — على حد تعبير الأديب محمود عارف — «من انداد حمزة شحاته، ودرس معه في فصل واحد. وهو شاعر مقل. ولكن شعره رقيق، وعذوبته كعذوبة شعر علي بن الجهم..»

كان الطلاب تحت سقف «الفلاح» اذن، ينشقون عبير الكلمة، ويذوقون رحيقها، بين شيوخ من الأدباء، وأتراب يتهيأون لمسيرة الريادة الأدبية، فمن البدهي ان تنجب «الفلاح» من أنجبت من الأدباء.

وقد تلقى «عارف» أثناء دراسته، من شيخه العواد — يرحمه الله — هدية ما يزال يشيد بها في اعتزاز، وهي كتاب «سفينة النجاة» في قواعد اللغة العربية في أربعة أجزاء كما تلقى منه أيضا كتاب «مسرات الحياة»، والجزء الأول من «النظرات» للمنفلوطي، تشجيعا له على التفوق والطموح.

وبين «عارف» وبين أقرانه من رفاق الدرس، وبينه وبين شيوخه من المعلمين الأدباء، تظل الألفة قائمة موصولة، وحين يتخرج بالفلاح، يعمل معلما بها، ويبدو أن هذا كان تقليدا، حَرَص على الالتزام به القائمون على أمر المدرسة، التي عمل بالتدريس فيها كثير من نوابه المتخرجين بها، من أمثال: عبدالوهاب آشي، واحمد قنديل، ومحمد حسن عواد. وندع الأديب محمود عارف يحدثنا بنفسه عن حقبة عمله بالفلاح. يقول:

«.. والحاصل أن دوري في التدريس كان دورا عاديا، ولكن بقدر ما تحملت من عبء هذا الدور في ذلك العهد البعيد، كنت أحس بالراحة النفسية والمتعة الروحية.. وبالرضا والقناعة، رغم ضآلة الراتب، الذي لم يزد على ستين ريالا في أواخر سني عملي في التدريس.. ومع حبي للعلم، وجدت نفسي مضطرا للتحول تمشيا مع متطلبات الحياة، فانتقلت من التدريس الى عالم الوظيفة..».

ومن الوظائف الحكومية التي شغلها: عمله بالأوقاف ووظيفة «رئيس الحسابات للكنداسة، أي الجهاز المختص بتحلية مياه البحر بجدة، وعضوية بلدية جدة. ثم ترك العمل الحكومي مدة، ليستقر عضوا في مجلس الشورى، وما زال به حتى كتابة هذه الترجمة.

وقد تعرف الأديب عارف، بالأديب «احمد بن ابراهيم غزاوي»، أثناء العمل بمجلس الشورى، وكانت العلاقة بين الأديبين قائمة على التقدير المتبادل، تكاد تتماثل — لديهما — الميول الأدبية والمشارب الثقافية، ولسوف يكتب «عارف» عن «غزاوي» ضمن من كتب عنهم.

ولم تكن الوظيفة لتغلّ خطى الأديب «عارف» عن نشاطه الأدبي: قارئا ومبدعا وناقدا، ولم تكن الحدود لتذوب بين الوظيفة والأدب. يقول — في معرض حديث له — «لا أخرج عن البرنامج الذي وضعته لنفسي منذ عرفت القراءة:

فأنا موظف بالنهار، وقارىء بالليل، ولا أخلط ــ في الأداء ــ بين الشيئين: فالوظيفة عندي يجب أن تؤدى في الدوام الرسمي، كعمل اساسي استحق عليه الراتب. والوظيفة ــ قبل كل شيء ــ هي المورد للإعاشة بالنسبة لي».

وهكذا لم يتحول «الأدب» في حياة أديبنا الى «حرفة» ومورد للعيش، والتكسب، وبذلك فقدت المادة سلطانها على عالمه المحبب الى نفسه. وهذا موقف أعطى جيل «عارف» من الأدباء السعوديين خاصية الانتماء للأدب، والتجرد في هذا الانتماء، فظل الأدب ــ في حياتهم ــ يتنفس في حرية، وينطلق دونما قيد، ولا هدف مادي.

ومن عجب أن الأديب يكون ــ في بعض الأحيان ــ رجل أعمال، فلا يصرفه نشاطه، عن عالمه الأثير لديه. فكأنه ــ في حبه للأدب ــ عاشق يلوذ بسكون الليل، هربا من صخب الحياة اليومية بهديرها وبريقها وصخبها. وكانت هذه السمة ــ سمة التجرد ــ واحدة من أبرز عوامل الاستمرارية والبقاء الصاعد، في سبيل بناء أدب يعكس انتماءً وطنيا وعربيا واسلاميا.

عارف والصحافة:

ارتبطت الصحافة بالأدب ارتباطا وثيقا في تاريخ الثقافة العربية ــ بل والعالمية ــ الحديثة، لا تستثنى من ذلك الثقافة السعودية. وقد شغف الأدباء السعوديون بالصحافة شغفهم بالأدب ذاته، كما لم ينصرف الصحافيون الأدباء عن الأدب. وهذا سمت واضح لدى جيل الرواد خاصة: العواد والآشي وقنديل ومغربي والأنصاري والعامودي، ومن سواهم دون تخصيص.

وتبدأ علاقة «محمود عارف» بالصحافة السعودية منذ مرحلة يمكن الاصطلاح على تسميتها «مرحلة الصحافة المخطوطة»: فقد شهد الحجاز صحيفتين خطيتين: احداهما في مدينة جدة، وكانت تسمى «صحيفة المُتحف الأدبي»، ورئيس تحريرها آنذاك الراحل «احمد قنديل»، وكان يصدر هذه الصحيفة النادي الأدبي بجدة، والذي أسسه جيل الرواد، قبل ظهور الأندية الأدبية على الساحة السعودية بشكل عام.

أما الصحيفة الخطية الأخرى، فهي «صحيفة الصفاء» كان يصدرها أدباء مكة، ورئيس تحريرها الراحل «محمد سرور الصبان» احد الرعاة البارزين لجيل الناشئة من الأدباء السعوديين في زمانه.

وفي مجلة «الصفاء» المكية، نشر «عارف» أول انتاجه الشعري، ووجد الحدب من معلمه الأول: محمد حسن عواد، وتناول المعلم عمل التلميذ بشيء من الصقل، ثم تولى بنفسه ارسال القصيدة، لتجد مكانها في صحيفة «الصفاء» الخطية بمكة. كما كان «عارف» يشارك في تحرير مجلة «المتحف الأدبي» الخطية في جدة.

كذلك كان للأديب محمود عارف دور المشجع والموجه لجيل من عشاق الصحافة: اذ شجع «عبدالفتاح ابو مدين» وصديقه محمد سعيد باعشن على اصدار مجلة «الأضواء»، وحاول تبصير الاديبين الشابين (آنذاك) ببعض العواقب والعقبات. ولكنهما مضيا الى الهدف لتصدر على ايديهما «الأضواء»، ثم ما تلبث ــ بعد عامين ــ ان تحتجب، فيعاودا المحاولة باصدار مجلة «الرائد»، التي صنعت الجيل الثالث من الأدباء السعوديين.

ومع بداية عهد «المؤسسات الصحفية» بالمملكة، شغل محمود عارف منصب «رئيس تحرير جريدة عكاظ» لمدة عام واحد، هذا الى كونه عضوا في مجلة «المنهل»، التي أصدرها علامة المدينة الراحل «عبدالقدوس الانصاري»، وما تزال توالي صدورها كواحدة من أعرق المجلات الأدبية في تاريخ الصحافة العربية، اذ تصدر منذ عام ١٣٥٥ للهجرة.

كذلك كان الأديب «محمود عارف» ــ وما يزال ــ يغذي الصحف السعودية بانتاجه الأدبي، اذ والى نشره في كل من: «صوت الحجاز»، و «الرائد»، و «قريش»، و «الجزيرة»، «والمدينة»، ومجلتي «اقرأ»، و «القافلة». وله طائفة من المقالات عن أعلام الصحافة السعودية، والحركة الصحفية عموما، تتميز بالتركيز والأهمية التاريخية، وسنعرض لهما في مكان لاحق من هذه الدراسة.

مجالات أخرى:

ولمحمود عارف اسهامه في تأسيس «نادي الشبان» بمدينة جُدة، وكان أحد أعضائه البارزين مع: حمزة شحاته ومحمد عبدالله رضا، واحمد قنديل، ومحمد حسن عواد، وصالح إسلام، وعمر نصيف، وعبدالعزيز جميل، ومحمد علي مغربي، ويونس سلامة، وعبدالوهاب نشار، ويوسف عوض. وكانت رسالة النادي ذات طابع شامل تمتد الى المجالات الاجتماعية، والسياسية، فضلا عن المجالات الثقافية والأدبية.

بقي أن نذكر أن «محمود عارف»، كان عضوا في أول فريق لكرة القدم تأسس في جدة، وانبثق عنه فريق الاتحاد، وذلك في عام ١٣٥٠ للهجرة. ومن الطريف ان الراحل «حمزة شحاته»، كان أيضا ضمن أعضاء هذا الفريق.

ولسوف نرى أن هذا التنوع في الوظائف والانشطة، لم يكن صارفا للأديب، أو نظرائه من الأدباء الآخرين، عن الاهتمام الأدبي، بل كان رافدا أثرى تجربة الأدب والفكر بالجم الغزير من الاتساع والشمول، والارتباط بالواقع في مفهومه الشامل الواسع.

ثقافة عارف:

سبق الحديث عن «مدرسة الفلاح» وضروب التشكل



والرعاية الأدبية التي حظي بها «عارف» زمن الطلب والتلقي، والبيئة الأدبية التي صنعتها «الفلاح» داخل اروقتها، وعلى امتداد الساحة الثقافية خارج جدرانها، فضلا عن مناهجها ومقرراتها، وطابع «الزمالة والتلمذة»، وما كان يعقد من الندوات، ويلقى من المحاضرات، وينظم من المباريات الأدبية. وقد مضى حديث وجيز عن اهداء «العواد» تلميذه بعض الكتب تقديرا وتشجيعا.

فللفلاح إذن دورها في تكوين «عارف»، وسواه ممن تخرجوا بها، فضلا عن امتداد هذا التأثير، فيمن عمل بالتدريس فيها من أبنائها بعد التخرج، ومن بينهم أديبنا عارف.

ولو شئنا تحري مناهل التأثير الأخرى في شخصية «عارف» الأدبية، فانا واجدون ذلك في دأبه المتصل على القراءة والاطلاع، فقد لعب «التثقيف الذاتي الدؤوب» دوره في اعداد هذا الجيل وتهيئته للمسرح الأدبي. وقد اتجه «عارف» صوب المنهل التراثي، مثل نظرائه، فقرأ الشعر القديم، وأعجب بزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، من الجاهليين الفحول، كما قرأ لطبقة الفحول من شعراء العصر العباسي، كأبي نواس، والبحتري، وأبي العتاهية، وأبي الطيب المتنبي، وأبي العلاء المعري.

أما شعراء العصر الحديث، فإن من أثار اعجابه منهم، احمد شوقي، وحافظ ابراهيم، وولي الدين يكن، وصبري، والشبيبي، والجواهري، وعمر ابو ريشة، وسليمان العيسى، والأخطل الصغير، والياس ابو شبكة، وعدنان مردم، وخليل مردم، وفؤاد الخطيب، والزركلي. إلا أنه ــ فيما يبدو ــ أشد اعجابا بالشاعرين العباسيين ابي فراس الحمداني، من القدماء، وولي الدين يكن من شعراء العصر الحديث. وواضح من كتاباته، انه لم يقنع من هذين الشاعرين باشعارهما وحدها، وإنما وقف ــ ايضا ــ على اخبارهما وتأثيرهما الابداعي في الآخرين.

وقد طالع «عارف» أيضا أدب المهجر، وأعجب به، وكان ــ كما يذكر في بعض مقالاته ــ يحضر بعض المجالس الأدبية التي يطالع فيها الأديب «عبدالوهاب الآشى» كلمات من كتاب «النبي» لجبران خليل جبران «وكان يقرأ بصوت جهوري، وكان لصوته أثر في اعجاب القارىء بالكلمات التي خطها كاتب مبدع من أدباء المهجر». وكان «عارف» يسمع الحوار الذي كان يدور في مجلس القراءة، ذاك، وجمهوره آنذاك، العواد ومحمد البياري، وجميل مقادمي، وحامد كعكي، وآخرون.

يقول «عارف» تعليقا على ما كان يدور من حوار في هذا المجلس: «وكنت أسمع الحوار يدور منصبا على أسلوب جبران في عرض أفكاره التي نسج خيوط معانيها من دراسته للثقافة الانجليزية.. وكثيرا ما قلد أدباء الحجاز أدب جبران في الشكل دون المضمون، ويرجع هذا التفاوت بين التقليد والتجديد، الى عدم معرفة اللغة الانجليزية وغيرها. الأمر الذي يعين على فهم الثقافة الغربية.. وهذا هو مدلول الاعجاب الشكلي عند أصحاب مجلس اخوان الصفاء في سفح جبل المنحنى».

ونقول ــ تعليقا على العبارة المتقدمة ــ : ان الثقافة الانجليزية ــ التي جهلها أدباء الحجاز ــ لم تكن وحدها السبب في تقليدهم أدباء المهجر في الشكل دون المضمون، بل انه ايضا وجوه التباين بين المشرب والبناء الديني والاجتماعي، اذ كان جبران يصدر في كثير من صوره وتعابيره ومضامينه عن عقيدته المسيحية، وتأثره الواضح بواقع الحياة الامريكية التي انغمس فيها مع كثير غيره من أعضاء «الرابطة القلمية» خاصة.

أما الناثرون الذين قرأ لهم الأديب، فمنهم: مصطفى لطفي المنفلوطي، وعباس محمود العقاد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، كما عُني «عارف» برافد مهم من روافد الثقافة الأدبية، يتمثل في المجلات والصحف المصرية، التي كان شباب أدباء الحجاز في جيله يقبلون عليها بشغف بالغ. ومن هذه المجلات: الهلال، والرسالة، والثقافة، والكاتب المصري، والكتاب.

وليس من وكْدِنا في هذه الدراسة ان نحصر مناهل ثقافة أديبنا، ولكن حسبنا ان نضع أيدينا على أبرز هذه المناهل، وأعمقها تأثيرا وتوجيها.

الرافد الثقافي ــ اذن ــ منوَّع المصادر والمناهل: بين قديم وحديث، وتحتل الثقافة المصرية مكان الصدارة لديه، ولدى أبناء جيله، ثم الثقافة الشامية: موطنا ومهجرا، ثم الثقافة العراقية.

عارف شاعرا:

الشعر هو أقرب أشكال الأدب الابداعي الى نفسه واستعداده، فهو يمارس ابداعه وقراءاته وتذوقه ونقده.. وقد سلفت اشارة الى نشره أول قصيدة له في مجلة «الصفاء» الخطية، التي كان يصدرها الشيخ محمد سرور الصبان، راعي أدب ناشئة الحجاز آنذاك. يقول «عارف»:

«.. وقد كنت ــ منذ حداثتي ــ ميالا الى قراءة الكتب بحثا عن الجمال في التعبير. وعندي ان التعبير الذي يحتوي على الجرس المنغوم، في ألفاظ تصور الهتفات الروحية والهزات القلبية الحالمة. ولم أجد هذا اللون من التعبير الا في الشعر. وكنت في مطلع الشباب أمعن في مطالعة الدواوين قديما وحديثا. وقد تولد عندي شعور خاص نحو قول الشعر،

استجابة لاحساسي الطروب، ووجداني المشدود بقيثارة النغم الرفيع. والى هذا الحد، كنت ــ وما زلت ــ احب الشعر المنغوم، المتسم بسمة الطبع الأنيق. وهذا اللون من الشعر لم اجد منه الا قليلا في كل ما قرأت طيلة حياتي».

وقد جمع «عارف» اشعاره في جملة دواوين، بلغ عدد ما تسنى لهذه الدراسة الاطلاع عليه منها ثمانية، وهي:

١ ــ الشاطىء والسراة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).
٢ ــ في عيون الليل (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
٣ ــ أيام من العمر (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م).
٤ ــ أرج ووهج (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م).
٥ ــ الروافد (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م).
٦ ــ على مشارف الزمن (بدون تاريخ).
٧ ــ الفردوس الحالم (بدون تاريخ).
٨ ــ العبور (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).

ومن الملاحظ على ما بين ايدينا من هذه الدواوين ما يلي:

١ ــ أن أكثرها قد خلا من تاريخ الاصدار، مما اضطر هذه الدراسة الى التحيل ــ تجوزا منها ــ للعثور على تاريخ يكون عادة أقرب ما يكون الى تاريخ الاصدار، كتاريخ الايداع، أو تاريخ في المقدمة التي كتبها الشاعر نفسه، أو استكتبها آخرين.

٢ ــ ان النادر من قصائد هذه الدواوين قد قرنه الشاعر بتاريخ نشره، أو بمكان النشر، على حين خلا الأعم الأغلب من قصائد الدواوين من التواريخ، أو أدنى اشارة، إلا ما تدلنا عليه المناسبة أو أسماء اعلام في بعض الاحايين. وهذا الملحظ مع سابقه يشكل عقبة في سبيل الوقوف على خط التطور لدى الشاعر وتاريخ مسيرته الابداعية.

٣ ــ اننا أمام شاعر عميق الاخلاص لقضيةالشعر، اذ يطيل القول، ويجاري المناسبات العامة والخاصة، ويُعنى بنشر أوفر رصيد زاخر من ثمار ابداعه.

٤ ــ بعض الدواوين قد جنت عليها «المطبعة»، فعلى حين يحرص الشاعر على ضبط كلمات القصيدة بالشكل، تأتي المطبعة فتخلف ظنه، محدثة فوضى سقيمة في مواضع الضبط وأشكاله، مع ما يترتب عليه من وقوع التصحيف والتحريف، وهما من أخطر الآفات وأكثرها جناية على النص الأدبي، فضلا عن الشعر الذي تجنح به الأغلاط المطبعية الى الاخلال بالوزن والقافية وحركة الروي. وديوان «الروافد» ــ بالذات ــ تشيع فيه الأغلاط المطبعية اكثر من غيره.

وعالم الإبداع الشعري لدى «محمود عارف» ينتمي الى الرومانسية، شأن نظرائه من جيل مرحلة الريادة، خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، أي قرابة الثلث الأول من القرن العشرين الميلادي، نعني جيل: محمد حسن فقي، والعواد، وحمزة شحاته، وطاهر زمخشري، واحمد عبدالغفور عطار، وحسين سرحان ومحمد سعيد العامودي، وسواهم آخرون. وهو جيل تأثر بالحركة الرومانسية بجناحيها: في الموطن والمهجر، كما تأثر بالموجة السابقة عليها ممثلة في مدرسة الديوان. وارتوى بنبع هاتين المدرستين: ابداعا ونقدا، وتابع بشغف ــ وانحياز ايضا ــ معاركها النقدية. نقول هذا ونقرره، دون أدنى تعارض مع ما قررناه ــ آنفا ــ من اطلاع هذا الجيل على القديم ونتاج الشعراء التراثيين في العصر الحديث.

لهذا ينبض شعر «محمود عارف» بالوحدانية، ويجنح الى الذاتية، ويستدعي الطبيعة في مجاليها ومغانيها، ويتشح بالصورة الحية، وينتقي من التعابير ما يزخر بالظلال والتأثير.

يقول الشاعر في ديوانه «في عيون الليل» في قصيدة بعنوان: «العيد»:

الكــون يرقص والقلوب تهش للعيد السعيد
والزهر.. في مرح الربيع يرف عطرا.. للوجود
والفاتنات من العــذارى في المعاطف والــبرود
يمرحــن في دنيا السعادة كالصبي أو الوليد
هــن الفراشات اللواتي.. طفــن من حول الورود
يا ليتني كنت الربيــع أرف في روض الشباب
او ليتني كنت الخلــي.. فلا ملام ولا عتـاب
ما كنت أحسب أنني أسلو واحتقـر العذاب
لكنني جربت حظــي.. في الشوائب واللبـاب

ويستلفتنا في القصيدة ــ التي منها المقطعان المتقدمان ــ ان الشاعر مفتون بالربيع، ما يفتأ يورد ذكره ويتغنى به في قصائده. كما يستلفتنا هنا ما يستلفت قارىء دواوينه من كثرة حديث الشاعر ــ ايضا ــ عن العيد، فلديه قصائد مثل: ذكريات العيد ــ من معاني العيد ــ من معطيات العيد ــ بطاقة عيد ــ فرحة العيد ــ العيد. وهذا جانب ــ في شعره ــ يتطلب دراسة خاصة توقفنا على دلالة هذا الاهتمام فضلا عن سماته ومضامينه، ولو أن القراءة الأولى، توحي بأن العيد ــ في قصائد عارف ــ يجيء دائما في موكب من النور والورود، مضمخا بالعطر، متشحا بالبسمة، وهــو ــ دائما ــ أمل وبشر. وهذا الى ما يتخلل قصائد العيد من لمحات فلسفية أوسياسية، وخلجات من الغزل والحب، فضلا عن نبضات الود بين كل البشر.

وكما تلح قصائد «عارف» على العيد، فانها ــ ايضا ــ



تلح على «البادية والصحراء»، اذ ترد في دواوينه قصائد مثل: واحتي في الصحراء ــ البدوي والصحراء ــ مفاتن من البادية ــ قصة العامرية ــ مفاتن البادية ــ البدوي والصحراء ــ نجوى على النبع.

واذا كانت قصائد العيد تحمل دلالات نفس منبسطة متفائلة، فان قصائد الصحراء تحمل دلالات نفس نقية عفوية المشاعر، موصولة بمنابع فطرية في مصادرها ومواردها.

وموكب الأمل والتفاؤل والحب والطبيعة الذي يتشح به «العيد» في القصائد الأولى، هو نفسه الذي يلف قصائد البادية والصحراء، مع رسم شخصية الانسان العربي موصولة بخيوط التاريخ والتراث، مما يضفي على التجربة دلالات الاصالة.

ونورد هنا أبياتا من قصيدتين: الأولى غزلية في صبية بدوية، والثانية اشادة بالشخصية العربية التي نبتت في الصحراء.

يقول الشاعر من قصيدته «قصة العامرية»:

أحببت عطف صبيَّة — والعطف فيها سجيَّه
أحببت فيها عيونا — مكحولة جؤذريـه
قبلتها في عيـون — فاستسلمت مستحيَّه
كأنها غصن بـان — بقامـة سمهريَّـه
حنانهـا مستفيض — في وجنـة ورديـه
وشعرهـا يتحلَّـى — بخصلـة غجريَّـه
فصيحـة في لسان — بلهجـة بلديـه
إحساسهـا عربـي — بنعـرة ريفيـه
تـرقُّ يومـا وتقسو — بغضبةٍ صيفيـه
كالنـور تحلـو صفاء — في الصبح أو في العشيه

وتمضي القصيدة هكذا في عفوية، سواء فيما توخاه الشاعر من اللغة والصور، أم في الجو الذي حققه حضور الصبية. وهي تذكرنا ــ فضلا عن جدة التجربة، بأداء البهاء زهير ورقته في التعبير الغزلي.

أما القصيدة الثانية ــ التي ترسم شخصية الإنسان العربي فعنوانها «البدوي والصحراء». يقول منها:

هنا.. هنا.. مضارب الصحـراء
ناهيك مهـد العرب القربـاء
منطلق الفخار في الآبـاء
ومجتلـى الأمجـاد للأبنـاء
والبـدوي في حمـى البيـداء
بشاشة.. يمـرح في هنـاء
في مرتـع الحشائش الخضـراء
يحتمـل القيظ مـن الرمضـاء
وقـارس الليـل مـن الشتاء
ينعـم في التجـوال بالحـذاء
مـن غير مـا زاد له أو مـاء
وينتشي بالغيمـة الوطفـاء
تغـدق بالمـزن مـن السماء

وهي تشخص الشخصية العربية، وتصنع لها اطارا من القيم، وتستدعي التاريخ الأصيل، الذي صنعته، والرسالة القدسية، التي أتى بها نبينا محمد، ﷺ، واذا كانت «بنت البادية» ترسم ملامح الرقة البدوية في أنوثتها، فان «البدوي والصحراء» تجسد ملامح الفحولة البدوية في رجولتها وقيمها وأصالتها.

وقد شارك الشاعر بشعره في مناسبات وطنية وعربية واسلامية وعالمية، كما شارك في المناسبات الشخصية المحدودة فنظم في الرثاء والاخوانيات والهجاء غير المسف.

فنجد في دواوينه قصائد عن نكبة فلسطين،وفتنة لبنان. ونكسة حزيران، والعبور، وزلزال اغادير، كما نجد قصائد اسلامية في مناسبات تاريخية وفي الحرم المكي، وفي الابتهالات الدينية، وفي شهر رمضان.

ففي ديوانه «مدينتي» يطالع القارىء ثلاثين مقطعة عنون لها ــ في فصل مستقل ــ بعنوان «دعاء وابتهالات»، وقد خص فيها الحرم الشريف ببعض المقطعات والأبيات، وكذلك بعض المناسبات الاسلامية، وشهر رمضان الكريم.

وحسبنا ما قدمنا من حديث موجز عن أهم المضامين الشعرية لدى الشاعر، وإلا فهي تتجاوز ما قدمنا الى اغراض ومضامين اخرى.

أمّا عن الصياغة اللغوية فهي تخضع لغير قليل من التفاوت، فاللغة لديه حينا تتوهج وحينا تنطفىء، يقوى نسيجها في مواضع، ليضعف ــ بشكل واضح ــ في مواضع أخرى، تكون ايحاءً وظلالا في أبيات، وأداءً نثريا مباشرا في أبيات، وان كان ديواناه: «في عيون الليل»، و«على مشارف الزمن» أقل تعرضا لهذه الظاهرة. وكثيرا ما تجني اللغة على القافية، فتأتي القافية قلقة نافرة، مسبوقة بغير قليل من ضعف الصياغة ونثريتها، وسنورد بعض الشواهد، ثم نتبعها ببعض ما نراه من الأسباب والعلل.

يقول ــ مثلا ــ في قصيدة «من المنطلق الأول للنور» من ديوان «أَرَج ووهَج»:

اذا تحقق مـن توحيدنـا أمـل
فالاصـل في الدين مقرون به الحاج
ووحدة الدين تعني وحـدة شملت
اواصر الديـن والميثـاق انتـاج
نستأصـل الغـدر داءً في مرابعنـا
(صهيون) اطلقـه داء وخُـرَّاج

ففضلا عن الضعف الواضح في صياغة الأبيات، وتقريريتها، فإن في القصيدة نفسها ألفاظا في موضع القافية مثل «مونتاج»، و «مكياج». يقول مثلا:

ان البطولات في أوهامكـــم قصص
محكيـــة بالصدى أخفاه «مونتاج»
تلك الوجوه التي تبـــدي صفاقتكم
فيها الهوان وهل للذل «مكيـــاج»

أما ما نراه من أسباب هذه الظاهرة فيرجع الى عوامل ثلاثة:

أولها: حرص شاعرنا على الاطالة، والخروج الى موضوعات ومناسبات قومية واسلامية. وهذه ظاهرة عامة في كثير من الاشعار.

ثانيا: حرصه ــ في الوقت نفسه ــ على استبقاء ونشر الكثير مما تجود به قريحته. مع أنه لو أخضع ما ينشره لعنصر «الاختبار والمراجعة»، فان ما سيبقى ادل على شاعريته الخصبة الأصيلة من كثير مما يحذفه.

وفي تراثنا شاعر مثل المتنبي خلد شعره ، وبقي اسمه بديوان صغير. وقد كان شاعر العرب الكبير دائم المراجعة والتنخل لاشعاره، حتى استوى له القليل الذي ملأ به الدنيا وشغل الناس.

ثالثا: شاعرنا مولع بشعر المناسبات، يفرد له القصائد، أو يدخله في سياقها، مع أنه طالما انحى باللائمة على شعر المناسبات. كما سوف نورد.

أما عن بناء القصيدة، فانه يدور في أنماط ثلاثة:

الأول، يتمثل في وحدة الزمن والقافية، وهو الأكثر.

الثاني، يخضع للبناء المنوع في الوزن والقافية، محاكيا ــ من بعض الوجوه ــ نمطي الموشح والمسمط في تراثنا العربي، شأن من سبق او لحق من شعراء العصر الحديث المجددين. وهذا كثير في شعر الاديب «محمود عارف». أما النمط الثالث فهو محاولات لنظم القصيدة الحرة، دون تقيد بقافية أو وزن. وهذه المحاولات نادرة في دواوينه، يقول منها في قصيدة «ذرات محترقة» من ديوان «أيام من العمر»:

من هو الانسان؟
هو الكيان الذي يجسد الوجود.
طموحات.. وأماني.. وبقايا
في داخل الانسان
كيف تستطيعين وقف
الشلال.. النابع من العاطفة
ذرات محترقة.. دفنت.
تحت الرماد.

والقصيدة تمضي على هذه الوتيرة، محاولة ان تتخذ منحى «القصيدة المدورة»، لدى شعراء التفعيلة. وهي مزيج من الغزل والتفلسف.

عارف ناقدا:

شارك الأديب «محمود عارف» في توجيه الحركة الأدبية بمقالات نقدية منوعة، جمعها فيما بعد في كتب أهمها:

١ ــ «اصداء قلم»، صدر عن تهامة في سلسلة «الكتاب السعودي» عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢ ــ «اوراق منسية»، ولم يصدر عن دار نشر، وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٣ ــ «حصاد الأيام»، ولم يصدر ــ ايضا ــ عن دار نشر، وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٤ ــ «ليل ونهار»، من اصدارات «الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بجدة» عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

ويمكن أن نصنف الدراسات التي ضمتها الكتب المتقدمة الى الأنماط الآتية:

١ ــ دراسات نظرية تتناول طبيعة الشعر وآراء الناقد فيه، أو تتناول قضايا تتعلق بواقع الأدب السعودي بخاصة، والأدب العربي بعامة.

٢ ــ تراجم لأعلام من الأدب السعودي، أو الأدب العربي: قديمه وحديثه.

٣ ــ نقد تطبيقي لأعمال ابداعية، أو لبعض الكتب الصادرة.

٤ ــ ومضات من سيرة الأديب الذاتية، تلقي الضوء على جوانب من حياته الأدبية وعادته في القراءة والعمل، ومقروءاته، ومناهل ثقافته، وعلاقاته الأدبية.

وهذه الدراسات ــ في عمومها ــ تكشف عن وعي بالأدب في واقعه وفي مفهومه وقضاياه، هذا الى رصيد ثقافي منوَّع، يتضح بالتمرس والعشق للكلمة وسعة الأفق حقا. هذا فضلا عما تميز به من التركيز، فهي ومضات كثيفة عميقة برغم قصرها. وهي بالتالي ملف مركز لصفحات من سجل الحياة الأدبية والنقدية في المملكة العربية السعودية.

ومحمود عارف في دراساته المتقدمة لا يحمل قلما مشاكسا، يهوى العراك، أو يفتعله. ولا يخل بهذه القاعدة بعض ردوده على آخرين. ولكنه ــ من خلال الكلمة الهادئة المخلصة ــ مشغول ابدا بتأصيل الحركة الأدبية في بلده، وابراز شخصيتها، دون إخلال بانتماء عربي اسلامي انساني.

ونحاول هنا أن نوجز القول حول أنماط دراساته النقدية:

١ ــ وأبرز ما تناوله ــ متصلا بطبيعة الشعر ــ حديثه عن «شعر المناسبات»، وهو حديث يلح عليه فيما ذكرنا من كتبه ودراساته، وفي مقدمة ديوانه «أرج وَوَهج» يقول من



مقال «الشعر والرؤية الفنية» ضمن كتابه «حصاد الايام»:

«والقول ان للشعر مناسبات، قول لا مدلول له من واقع الشعر الأصيل. والمناسبات هي اصطناع أوقات أو مجالات أو مواقف او دواع وتصلح لأن تكون عوامل إلهام للشعر.. وشعر المناسبات مشكوك في واقعه، لأنه مثقل بالعوامل الخارجية، التي لا تمت بصلة الى النبع الداخلي في النفس والقلب والاحساس».

وقد كرر القول بنصه في مقدمة ديوان «أَرَج ووَهج»، ثم أضاف: «ومن قائل يقول ان هناك مناسبات خلقت روائع من الشعر كشعر المدح والهجاء والتهنئة والعزاء والفخر والتمجيد. ونحن نقول، بأن كل رائعة من هذا الشعر — لا تصل في مستواها ودرجتها بأصالة شعر نابع من الشعور.

على أن حديث الناقد عن شعر المناسبات يتصل بكلامه عن طبيعة الشعر وماهيته. وباعثه رغبة في تجديد الشعر العربي الحديث، وتحريره من ربقة الافتعال والتصنع، وهي دعوة نادت بها مدرسة الديوان التي حملت على شعر المناسبات، وأطلقت عليه «شعر الكراسي المذهَّبة». ونحن نوافق الناقد تماما في رأيه.

٢ — أما من ترجم لهم من الاعلام، فمنهم استاذه «العواد»، وعبدالوهاب آشي، وأحمد قنديل، وعبدالقدوس الأنصاري، وعبدالفتاح أبو مدين، وأحمد ابراهيم غزاوي. ولا تبرز في هذه المقالات — على وجازتها — القيمة التاريخية فحسب، وإنما تبرز قيمة أخرى، هي ملاحظات الأديب ونظراته، التي لا تتاح الا لمن عايش الواقع الأدبي، وشارك في صنعه ونورد — على سبيل المثال — قوله في صدر مقاله عن الأديب «عبدالوهاب الآشي»:

«أدب التراث هو النبع الأول، الذي نهل منه أدباؤنا من الكتاب والشعراء السعوديين. وهؤلاء الأدباء — على اختلاف مستوياتهم — مدينون لتراثنا بالوصول، من امتياز وتفوق. ومعظم هؤلاء الأدباء تخرجوا من مدارس الفلاح بمكة وجدة. وبعد تخرجهم أدوا رسالة التدريس كواجب كل مواطن نحو التزامه بأداء رسالة الوطن».

وهذه العبارة — على وجازتها — تلخص الكثير من المعالم التي ميزت جيل الريادة من الأدباء السعوديين.

٣ — أما نقده التطبيقي للأعمال الابداعية، او عرضه للكتب، فهو ثري بلمحات ناقد موصول العرى بالابداع والواقع الأدبي، فمن أبرز ما يميزه عنايته بابداعات جيل الشباب، هذا الى ما أولاه من العناية لجيل الشيوخ كما أوضحنا. وفي صدد عنايته بأنماط ومذاقات متباينة من الشعر والقصة، والأدب القديم، والأدب الحديث.

ففي احد مقالاته — مثلا — يتناول المجموعة القصصية: «مواسم الشمس المقبلة» لمحمد علي قدس، ويبدي حفاوة بها، ويفسح لكاتبها طريق الأمل والتفوق. كما يتناول في مقال آخر ديوان «الرحيل الى الأعماق» للشاعر الشاب علي احمد النعمي، احد شعراء جيزان، ويخص قصيدة الشاعر في مخاطبة زوجته، بمزيد عناية. غير أن قضية «القدم والحداثة» لا تحظى منه برأي مباشر صريح.

أما عرضه للكتب، فهو يسجل اضافة تثري الكتاب الذي يتناوله بالعرض والتعريف، فيستدرك على صديقه علامة المدينة «عبدالقدوس الانصاري» بعض من فاته ذكرهم من أعلام جدة، وذلك في موسوعة الأنصاري القيمة عن تاريخ جدة. وهنا لا تفوتنا الاشارة الى ان الأنصاري — يرحمه الله — كان اثناء عمله في موسوعته الكبرى يرجع الى الأديب «محمود عارف» في بعض المسائل، وهو يسجل ذلك في حواشي موسوعته: أمانة وتوثيقا. وقد بلغت مواضع رجوعه تلك، وذكره لمحمود عارف في غيرها قريبا من عشرة مواضع.

٤ — وتبقى — بعد هذا — مقالات الأديب في سيرته الذاتية، والتي منها مقال له بعنوان «الشعراء الذين تأثرت بهم»، و «قصتي مع الصحافة» في مجموعة «حصاد الأيام»، هذا الى اشاراته المبثوثة المتناثرة في تضاعيف مقالات أخرى، تبرز دوره وعلاقاته ومناهل معرفته، في بسطة ودون قصد الى تنفج او ادعاء.

وما تزال الحاجة ماسة الى اهتمام «الأديب العربي» على الساحة العربية كلها، باصدار كتاب يضم سيرته الذاتية موصولة بعلاقاته الأدبية، وتجاربه الابداعية، وآرائه، والواقع الأدبي في عصره وبيئته. ان هذا الضرب من الأعمال هو التأريخ الأدبي الحي، والنقد الأدبي النابض□

تصحيح

في عدد شوال الماضي وردت مقطوعة شعرية من أربعة أبيات في الصفحة ١٣ و١٤ من مقال «أدباء من المملكة العربية السعودية» محمد سعيد العامودي مطلعها:

يا آل عثمان فالمغرور من غرا

باهل اوربة او عهدهم طرا

وقد نسبها كاتب المقال د. مصطفى ابراهيم حسين الى شيخ الصحافة الاسلامية محمد سعيد العامودي، الذي بدوره بعث الينا رسالة يوضح فيها ان هذه القصيدة هي لشاعر المدينة المنورة الراحل ابراهيم الاسكوبي.

وحرصا من القافلة على امانة النشر فقد جرى هذا التصحيح.

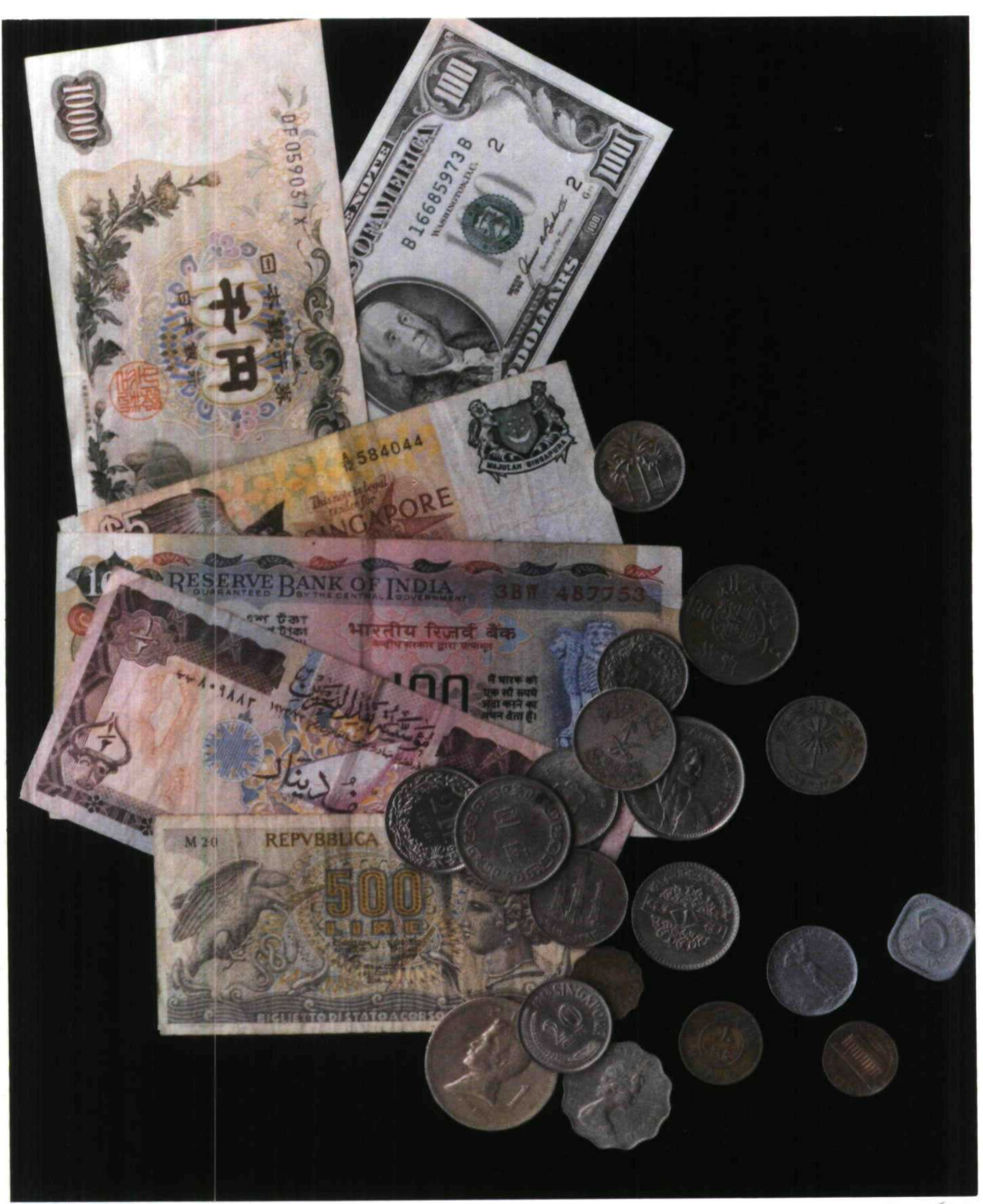
أغنية للأمل

للشاعر: يس الفيل / القاهرة

أطيعيني
ولا تصغي لثرثرة المجانين
ورديني
الى دنياك أغنية
ولحناً ليس يدميني
اعيدي فيك تكويني
فقد اخضر نوارُ
وأزهر بعد ذاك الجدب صبّارُ
وقد أنضو ثياب الضعف واللين
أيا أنشودة هجرت
وما اعتذرت
ولا اشتاقت لتلحيني
بقايا أمسك المجروح
من دنياك تدنيني،
تدمدم في شراييني
وتصرخ:
ــ يا زمان الفتح،
ــ يا إشراقة الأمل المكبل،
ــ يا نشيد البدء
ــ من أي الجهات يعود نبض القلب؟
ــ من أي الجهات اذاً
غدا يا غيث تأتيني؟
وأصرخ في بقاياك التي انتثرت
على أمسي:
أطيعيني
وشدي خطوك المغروس في الطين
وضميني
صباحا أبيض القسمات،
قلبا صادق الحسِّ
وإيمانا بما أبدعتِ،
إيمانا بما أغدقتِ
في شفة الملايينِ
وخلّيني
أشد خطاك للآتي
وأسرع نحو فجر لاحَ
فواح الرياحين
غدا
يغدو لنا الماضي هنا ذكرى
غداً
تتحقق الأحلام،
نكتب في دفاترنا،
بكل الصدق
نكتب قصة أخرى
وإن متنا
ولم تورق مشاتلنا
فإن بقية منا
سنتركها
تقول لمن سيتبعنا:
هنا كتبوا
بكل وفائهم كتبوا
بداية فرحة كبرى



من أعلى الصورة ـــ يرى السلطان اكبر
وهو يشارك، ويشرف على مراحل بناء
«مدينة الفتح».



راجع مقال: « النقود ظهورها وتطورها .»